TAG-414.3-04/03

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد
تلمسان

كلية الآداب و العلوم الإنسانية
و العلوم الاجتماعية

قسم اللغة و الأدب العربي

سجل تحت رقم 1/0865
بتاريخ
الرقم 31 ماي 2008

العنوان

التركيب البلاغي في شعر الهذليين
(صور البيان نموذجا)

مذكرة لنيل شهادة الماجستير في البلاغة و الأسلوبية

إعداد الطالب:
- نزيهة زاير

إشراف الأستاذ الدكتور:
- عبد الجليل مرتاض

لجنة المناقشة :

- أ.د محمد عباس	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	(رئيسا)
- أ.د عبد الجليل مرتاض	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	(مشرفا و مقررا)
- د. عبد الجليل مصطفاوي	أستاذ محاضر	جامعة تلمسان	(مشرفا مساعدا)
-أ.د محمد زمري	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	(مناقشا)
- د. خير الدين سيب	أستاذ محاضر	جامعة تلمسان	(مناقشا)

السّنة الجامعية :2006-2007م

1427-1428هـ

كلمة شكر

أتقدّم بجزيل الشّكر إلى الأستاذ الدكتور عبـــد الجليـل مرتـاض لتجشّمه عناء الإشراف على هذا البحث برحابة صدر و صبر كبيرين .

كما أقف لأحيّي أستاذي الفاضل الدكتور عبد الجليل مصطفـــاوي الذي لم يبخل عليّ بتوجيهاته فله مني تحية إجلال، يظلّلها الكثـير مـن العرفان و التّقدير لذلك العطاء السخيّ.

و بودّي في الختام أن أوجّه شكري الخالص لكلّ من قدّم لـي يـد العون لإنجاز هذا البحث.

- نزيهة زاير -

مقدمة

مـقدمـــة

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على الحبيب المحب، روض النفس وقرة العين سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وبعد :

لعلّه من الصعوبة على باحث مبتدئ الولوج إلى الشعر العربي القديم، خاصة إذا تعلق الأمر بقبيلة عريقة كهذيل، لأجل ذلك وقفت يوم اقترح عليّ هذا البحث حائرة، إذ لم تكن لي صلة سابقة بشعر الهذليين عدا عينية أبي ذؤيب الهذلي التي كانت في جملة ما قرأت في سنوات ما قبل التدرج، وأعترف أنّني بدأت بحثي بخطوات وئيدة و مترددة، فتصفحت أول الأمر ديوان الهذليين فوجدته ضخما فيه من غريب الألفاظ والمعاني الوعرة ما يستوفي رسائل وبحوثا وينفق من الوقت سنوات لا أشهرا، فقررت –بعد استشارة أستاذيّ المشرفين– حصر دراستي حول قصائد شاعر هذلي واحد.

وبعد طول تفكير وقع اختياري على شاعر تبيّن لي أنه لم يحظ من الكتاب القدامى بالعناية الكافية وهو أبو خراش الهذلي.

وإن ما ألقي بي في غمار هذه الدراسة التي تأخذ من كل علم بطرف إنّما هو دافع شخصي، إذا ما فتئت أسمع وأقرأ عن فصاحة بني هذيل على الإطلاق.

أما الدافع الثاني فقد كان فضولا علميا بحتا. إذ حاولت في دراستي الرجوع بالزمن إلى الوراء لتقصي حياة عرب ذلك الزمان وأثرها على آدابهم وسائر إبداعاتهم، فحاولت إماطة اللثام عن سرّ و ممكن ذلك البيان العجيب في إشكالية حصرتها فيما يلي :

كل من ينظر إلى شعر الهذليين يلحظ غرابة تميز ألفاظهم فهم لا يستعملون المتداول السهل، وإنّما يعمدون إلى الصعب والغريب، فهل هذا هو سرّ فصاحتهم، أم أنّ فصاحتهم كامنة في تركيبهم اللغوي وبيانهم الساحر؟ وهل لصور البيان أثر بارز في شعرهم بما يحمله من قصائد خالدة؟

وكان عليّ بعد ذلك إيجاد إجابة لهذه التساؤلات فوضعت خطة محكمة لذلك؛ إذ اتبعت الخطوات التالية :

-مقدمة

الفصل الأول : بيئة هذيل

أولا : هذيل نسبا و موقعا.

1-نسب هذيل

2-منازلها

ثانيا : هذيل اجتماعا وثقافة

1- هذيل في الجاهلية .

2- مميزات مجتمع هذيل.

3- حياة هذيل الدينية

4- نشاط هذيل الاقتصادي

5-ظاهرة الذؤبان في مجتمع هذيل.

ثالثا : هذيل في صدر الإسلام

1-هذيل بعد البعثة .

2- هذيل بعد انتشار الإسلام

الفصل الثاني : الفضاءات اللغوية والفنية في شعر الهذليين

أولا : خصوصية لهجة هذيل.

1-تمهيد

2- لهجة هذيل بين اللغويين والنحويين

أ-المستوى الصوتي والصرفي

ب- المستوى النحوي

ج-المستوى الدلالي

ثانيا: الخصائص الفنية في شعر هذيل

1-بناء القصيدة

2-خصائص موضوعية

ثالثا : صور البيان في شعر الهذليين

-التشبيه في شعر هذيل

الفصل الثالث : صور البيان في شعر أبي خراش الهذلي

أولا: أبو خراش الهذلي

1-نسبه

2-نشأته

3-إسلامه

4-وفاته

5-بعض خصائص شعر أبي خراش

ثانيا: الصور البيانية في شعر أب يخراش

1-التشبيه

2-الإستعارة

3-الكناية

خاتمة:

وبما أنني تطرقت في دراستي إلى قسمين أحدهما نظري والثاني تطبيقي، فقد اتبعت في الأول منهجا تاريخيا بحتا، كما عوّلت في الثاني على الوصف والإستقراء من خلال عملية إحصاء لأشعار الهذليين .

وقد سطّرت لبحثي هذا هدفين أساسين هما :

*النفاذ إلى ممكن فصاحة الهذليين على وجه العموم وشعرائهم على وجه العموم وشعرائهم على وجه الخصوص.

*مدى انتشار الظواهر البلاغية في أشعار بني هذيل وأثرها في أعمالهم الفنية .

و كان عليّ – أوّلا– أن أجوب العصر و أعيش أجواء القبيلة من خلال دراسة تاريخية خصصت لها فصلا كاملا من بحثي، فوقفت على بعض كتب الأخبار كأغاني الأصفهاني ، وتاريخ ابن خلدون، و الكامل في التاريخ لابن الأثير ، و معجم ما استعجم للبكري دون أن أنسى كتاب "شعر الهذليّين في العصرين الجاهلي و الإسلامي" للدكتور أحمد كمال زكي الّذي كان لي عونا طوال رحلة بحثي .

و بعد ذلك حاولت في الفصل الثّاني الكشف عن بعض الجوانب اللّغوية للقبيلة من خلال استقراء بعض الشّواهد و جمع بعضها الآخر من كتب اللغة و النحو مع ذكر أهم المميزات الفنية الّتي طبعت شعرهم و جعلته –يتبوّأ– أعلى مراتب البيان العربي و لقد دعّمت بحثي في هذا المجال ببعض المصادر و المراجع أهمّها : لسان العرب لابن منظور ، الأمالي للقالي، و الإنصاف في مسائل الخلاف... إضافة إلى ديوان الهذليين و شرح الديوان لأبي سعيد السكري.

أمّا الفصل الثالث ، فقد بدأته بتمهيد يلخّص سيرة أبي خراش الهذلي– محور الدراسة ثمّ عملت على استقراء الشّواهد الشّعرية الّتي جسّدت بعض صور البيان في شعره مع شيء من التحليل ، ولقد عوّلت في هذا الجزء من البحث على الديوان بشكل أساسي إضافة إلى مصادر و مراجع أخرى كتلخيص مفتاح القزويني، سر الصّناعتين و غيرها من كتب البلاغة.

و لبلوغ تمام الغاية ذيّلت هذا العمل بتقويم شامل يلخّص ما جاء فيه مع بعض الملاحظات.

وفي الأخير أتمنى من الله التوفيق في الإحاطة بالموضوع و في إيفاء البحث حقه من الروح العلمية.

الـفـصـل الأول

بيئة هذيل

- تمهيد

أولا : هذيل نسبا و موقعا

1- نسب هذيل

2- منازلها

ثانيا : هذيل اجتماعا و ثقافة

1- هذيل في الجاهلية

2- مميزات مجتمع هذيل

3- حياة هذيل الدينية

4- نشاط هذيل الإقتصادي

5- ظاهرة الذؤبان في مجتمع هذيل

ثالثا : هذيل في صدر الإسلام

1- هذيل بعد البعثة

2- هذيل بعد انتشار الإسلام

جاء في الأغاني :"سُئل حسان بن ثابت : من أشعر الناس ؟ قال : حيّا أم رجلا؟ قالوا: حيّا؛ قال : أشعر الناس حيّا هذيل، و أشعر هذيل غير مدافع أبو ذؤيب".[1]

و لا غرابة فهذا الحكم يمكن وصفه بالوجيه ذلك لأنه صادر عن شاعر مفلق، يفهم القريض أحسن من غيره.

و نظرة عامة على شعر هذيل، تدعونا إلى اكتشاف تراث فني يزخر بصور في قمة الجمال الأدبي، حيكت بلغة قوية تميل إلى الغرابة، فشعرهم كما وصفه الدكتور أحمد كمال زكي : "بدوي اللفظ و الأسلوب، حافل بالصور و بالقصص الحزين".[2]

فقد كان الشعر الهذلي في كل عهود هذه اللغة موضع اهتمام كبار الرواة و المؤلفين أمثال الأصمعي و السكري، من أجل ذلك أحاط أولئك الرواة أشعار هذيل بعناية خاصة، فخلّفوا لنا بذلك مصادر ضخمة و كاملة تحفظ التراث الشعري لهذه القبيلة : لكن مع كثرة هذه المصادر و تباينها يبقى لنا أن نتسائل كيف وصل إلينا شعر هذيل كاملا؟ و من عني بشرحه ؟

السكري :

وهو أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري (212هـ-275هـ)، كان حسن المعرفة باللغة و الأنساب و الأيام مرغوبا في خطّه لصحته، و كان ثقة حاذقا يقرئ القرآن .[3] جمع وشرح أشعار أكثر من خمسين شاعر كما حرص على جمع أشعار القبائل العربية بما فيها هذيل و إن كان الأصمعي* قد سبقه إلى شرح بعضها، و ما وجد من شرح السكري لأشعار

[1] الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، دار الثقافة بيروت- لبنان، ط1، د.ت، 256/6.

[2] شعر الهذليين في العصرين الجاهلي و الإسلامي للدكتور أحمد كمال زكي ، دار الكتاب العربي للطباعة و النشر، القاهرة، ط1، 1969م.

[3] الفهرست لمحمد بن إسحاق النديم ، تحقيق مصطفى الشويمي، الدار التونسية للنشر ، ط1، د.ت، ص 55.

* الأصمعي هو عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي بن أصمع (ت: 217)، ينظر : معجم الأدباء، المعروف بإرشاد الأريب إلى معرفة الأديب لشهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي نسخ و تصحيح . د-س مرجليوث، ط1، 1964،ج1، ز97/1.

الهذليين، هو عن طريق الرّماني أبي الحسن بن عيسى بن علي (296هـ-384هـ) رواية عن أبي بكر أحمد بن محمد بن عاصم الحلواني القارئ (ت333هـ).[4]

و في ضوء ما جمعه السكري تظافرت جهود الكثير من المهتمين بهذا المجال من العرب و الأوربيين على حد سواء بغرض شرح الأشعار و نشرها غير أن الطبعات التي وصلتنا كانت متباينة من حيث الشكل و المضمون و سبب ذلك - كما رجحه - الأستاذ عبد الستار أحمد فراج راجع إلى كون لفظة "هذلي" كانت تطلق على من جاء في أشعار الهذليين، كما يقال الحماسيّ لمن جاء في حماسة أبي تمام، فكلمة "هذلي" تتناول من جاءت أشعاره في الديوان و إن لم يكن هذليّا، كما أن السّكريّ في كتابه يروي بعض القصائد وينسبها لأكثر من شاعر، و قد يعيد رواية القصيدة المنسوب لصاحبها عدّة مرات مع اختلاف في بعض الأحيان في الترتيب و الشرح.[5] و أهم هذه الطبعات مما وصلنا :

* مخطوط ليدن :

و يجمع عددا كبيرا من شعراء هذيل، كما يعرض لكثير من الأيّام و الحوادث التي ترتبط بتاريخ القبيلة.[6]

*مخطوط الشنقيطي :

و هو قسم صغير ضمن مجموعة ضخمة تشتمل على دواوين منها : ديوان حسان بن ثابت، ديوان لبيد و ديوان الشمّاخ و الأعشى و غيرهم، و المطبوعة تضم واحدا وثلاثين شاعرا من شعراء هذيل. و هي في مجملها نسخة من كتب العالم المغربي محمد محمود الشنقيطي.[7]

---

[4] شرح أشعار الهذليين لأبي الحسن بن الحسين السكري، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، مراجعة : محمد محمود محمد شاكر، مكتبة دار العروبة، القاهرة، ط1، د.ت : 08/01.

[5] المرجع نفسه : 15/14/1.

[6] شعر الهذليين في العصرين الجاهلي و الإسلامي: ص 118-120.

[7] المرجع نفسه : ص 118-120.

*كتاب شرح أشعار الهذليين :

و طبع في لندن عام 1854م، و هو يشتمل على ثمانية و عشرين شـــاعرا عرضـــت قصائدهم منظمة تحمّل كل منها رقما معينا، يتخلّلها شيء من شرح السكري لها، كمـــا أنّ كلّ قصيدة ممهّد لها مقدّمة تعين على فهم الجو الذي قيلت فيه.[8]

و هذه المطبوعة اعتنى بها جون جود فري لويس، الذي حـــرص علـــى نشـــرها في أكمل و أحسن صورة، و في الحقيقة إن الباحث يجد نفســـه في حاجـــة ماســـة إلى هـــذا الكتاب، ذلك أنه – في اعتقادي- أوضح ما وصلنا من شعر الهذليين على الإطلاق.

* البقية :

و هذه المجموعة ليست في كتاب مستقل، إنما هي ضمن كتاب يتحدث فيه المستشرق الألماني فلها وزن عن تاريخ اليهود في بلاد العرب، حيث أفرد في أحد أقسامه بحثا خاصا عن هذيل.[9]

و هذه المجموعة تمثل جزءا من الكتاب السابق (شرح أشعار الهذليين)، و ذلك لأنهـــا روت لبعض الشعراء و الذّين لم ترد أسماؤهم في المطبوعات السابقة مثل أبي صخر و غـــيره، وقد ضمّت في محملها كثيرا من أيّام هذيل و وقائعها.

*ديوان الهذليين :

و جاء في ثلاثة أقسام خصص أوّلها لأبي ذؤيب الهذلي أما الثـــاني و الثـــالث فقـــد تناولا شيئا من أشعار ما يزيد عن ثلاث و عشرين شاعرا، وهو صورة ممتازة لحيـــاة هذيـــل ومجدها التليد، خاصة بما ميّزه من شرح و مقدمات لبعض القصائد حرصـــت دار النشـــر** على توضيحها بالوقوف على أمهات كتب اللغة كخزانة البغدادي و أغـــاني الأصفهـــاني وغيرها...

[8] شعر الهذليين ، ص124.

[9] المرجع نفسه : ص126.

** ديوان الهذليين، طبعته دار الكتب المصرية، نقلا عن مخطوط الشنقيطي .

و ممّا لا شكّ فيه أنّ هذه الدّواوين أوفر نفعا، و أحقّ بالرّجوع إليها و الإعتماد عليها، فهي وثيقة حيّة لتاريخ القبيلة و أيّامها، إضافة إلى كتب مختارات أشعار العرب كالمفضليات والحماسة و الأمالي...، على أنّ هذه المصادر لا يمكن الظفر منها بشيء كامل عن هذيل فمنها من يسوق طرائف القبيلة، و منها من يستشهد بأخبارها و آخر يعنى بالمدلولات اللفظية المتداولة بين شعراء القبيلة، لكن هذا لا يعني أنها كانت قاصرة عن بلوغ الغاية في الإحاطة بشعر هذيل، و هذا أمر وقفت عليه غير مرّة، إذ كانت عونا لي في فهم الكثير من شعر هذيل.

أولا : هذيل نسبا و موقعا

1- نسب هذيل :

لا يكاد يختلف أحد من المؤرخين و المترجمين في صحّة نسب هذيل إلى قبيلة مضر[10] وهذه حقيقة ظفر بها الباحثون في أنساب العرب بغير مشقة أو عناء، و من المحقق أيضا أن خبر هذيل نال - حظا عظيما من القيل و القال ممّا جعله يخالط بعض الإضطراب، لذلك رأيت أن أتمهّل - قبل الخوض فيما أريد محاولة مني التحقق أكثر لتبين الصّواب.

غير أنّ ما وجدته في كتاب "شعر الهذليين في العصرين الجاهلي و الإسلامي" للدكتور أحمد كمال زكي يبعث على الإطمئنان، لما فيه من أسباب و حجج مقنعة تثبت نسب هذيل.

فالدكتور أحمد كمال يرى أنّ صحّة النّسب ظاهرة يتّصف بها البدو، و ذلك راجع لعدم نزوع أهل الحضر إلى مخالطتهم و العيش بينهم[11] و قد أكّد ذلك ابن خلدون حينما قال: "إنّ الصّريح من النّسب إنّما يوجد في متوحّشي القفر و ذلك لما اختصّوا به من شظف العيش و سوء الموطن".[12]

و اعتمد ابن خلدون في رأيه على صحّة نسب قريش و كنانة و ثقيف و بني أسد وهذيل و ما جاورهم من خزاعة و هم أهل بداوة.

و يذكر عبده الراجحي أن العدنانيين شعب ** نسب العرب المستعربة الّذي تفرّعت منه قبائلها، و عمائرها ** و بطونها ** و أفخاذها **، و يذكر النسّابون أنّ مواطن بني

---

[10] اللهجات العربية في القراءات لعبده الراجحي، دار المعارف، مصر، ط1، 1969م، ص30.

[11] شعر الهذليين في العصرين الجاهلي و الإسلامي للدكتور أحمد كمال زكي.

[12] المقدمة : للعلامة عبد الرحمن بن خلدون، مكتبة المدرسة و دار الكتاب اللبناني للطباعة و النشر، بيروت، ط3، 1967م: 227/1.

** الشعب : النسب الأبعد كعدنان.

** العمائر : ج (عمارة) و هي ما انقسم فيها من أقسام القبيلة كقريش، كنانة .

** البطن : وهو ما انقسم فيه من أنساب العمارة كبني عبد مناف، و بني هاشم.

** الفخذ : و هو ما انقسم فيه من أنساب البطن .

عدنان مختصّة بنجد و كلّها بادية رحّالة إلاّ قريش، و أشهر قبائلهم مضـــر و إليهـــا يعـــود نسب هذيل.[13]

و على هذا النّحو فهذيل فيما جاء في سلسلة النسب الغالبة : "هذيل بن مدركة بـــن إلياس* ، و إلياس هو ابن مضر بن نزار بن معد بن عدنان" .[14]

و يروى أنّ أحدهم مدركة بن إلياس ولد له خُزيمة و هُذَيل** و أمّهما سلمى بنـــت أسد بن ربيعة بن نزار[15].

و يذكر الإخباريون أنّ خزيمة بن مدركة هو الّذي نصّب هبل – على الكعبة ** فكان يقال : "هبل – خزيمة".[16]

و من تسلسل قبيلة هذيل نرى أنّها قريبة في النسب من قبيلة قريش ، فهذيل مدركـــة هو أخ لخزيمة بن مدركة جدّ القرشيين و هي بذلك تعتبر من القبائل العدنانية الـــتي يلتقـــي جدّها في نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الجدّ الخامس عشر (مدركة)[17].

ويجمع النّسّابون أنّ لهذيل بن مدركة من الأبناء "لحيان" و "سعد" من صلبه، و كـــان سعد أكثرهما نسلا، فمن بطون هذيل : خزاعة بن سعد بن هذيل، و جهامة بن سعد، وغنم بن سعد، و منَعة بن سعد، و حُريث بن سعد بن هذيل، و تميم بن ســـعد، و كـــاهل بـــن سعد، و صاهلة بن كاهل و كعب ابن كاهل و صبح بن كاهل.[18]

---

[13] اللهجات العربية في القراءات: ص 31.

* إلياس كان يكنى أبا عمر و أمّه الرباب بنت حبدة ابن معد.

[14] الكامل في التاريخ لابن الأثير ، دار الكتاب العربي –بيروت، لبنان، ط2، 1967م : 2/18-19.

** هذيل : اسم أب قبيلة عربية : جمعه (هذاليل) : أي المتقطعون أو المسرعون يتبع بعضهم بعضا، ينظر : متن اللغة للشيخ محمد رضا ، دار مكتبـــة الحياة، د.ت، ط1: 1/618، في أمالي القالي 2/167 : الهذلول ريح ممتدة .

[15] جمهرة أنساب العرب لابن محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف ، مصـــر، ط1، عـــام 1962م، ص10-11.

** هبل من أشهر أصنام الكعبة، و كان على هيئة إنسان مقطوعة يده اليمنى .

[16] الكامل في التاريخ لابن الأثير : 2/19.

[17] نقلا عن بحث على الأنترنيت تحت عنوان "قبيلة هذيل" للأخ سعود محمد الخزيشي الهذلي.

[18] جمهرة أنساب العرب لابن حزم : ص9-12.

لكنّ الأمر الغريب الّذي جعلني أشارك من سبقني -من الباحثين- الحيرة هو سكوت السواد الأعظم من النّسابين و الإخباريين عن ذكر أبناء للحيان، و إن كان الدكتور أحمد كمال زكي يرجّح أنّ أولئك الأبناء إن وجدو و ربّما انقرضوا، فلم يشأ واحد من النسّابين أن يعرض لهم. [19]

غير أنّ ابن حزم سرعان ما يزيل هذا الإلتباس حينما يتحدّث عن هذيل، و يعدّ من أبناء لحيان طابخة و دابغة و يقول أنه كان لهما عدد من الأبناء.[20]

و إلى هنا ينتهي كل حديث عن هذيل و نسبها، و إنّني باسترسالي في الحديث عن خبر هذيل و نسبها لست أدّعي الوصول إلى جديد لم أسبق إليه، إنّما أردت تجسيد صورة بسيطة و كاملة لأصل هذيل، و حسبنا أن نعلم أنّ هذيل من مضر و أنّ لها سعدا و لحيان من أكبر البطون الّتي سكنت الحجاز و شغلت النّاس بتراثها الشّعري الضّخم.[21]

و الرسم البياني التالي محاولة لتوضيح ما سلف ذكره :

[19] شعر الهذليين في العصرين الجاهلي الإسلامي : ص06.

[20] جمهرة أنساب العرب : ص10.

[21] شعر الهذليين في العصرين الجاهلي و الإسلامي : ص08.

سلسلة نسب هذيل **

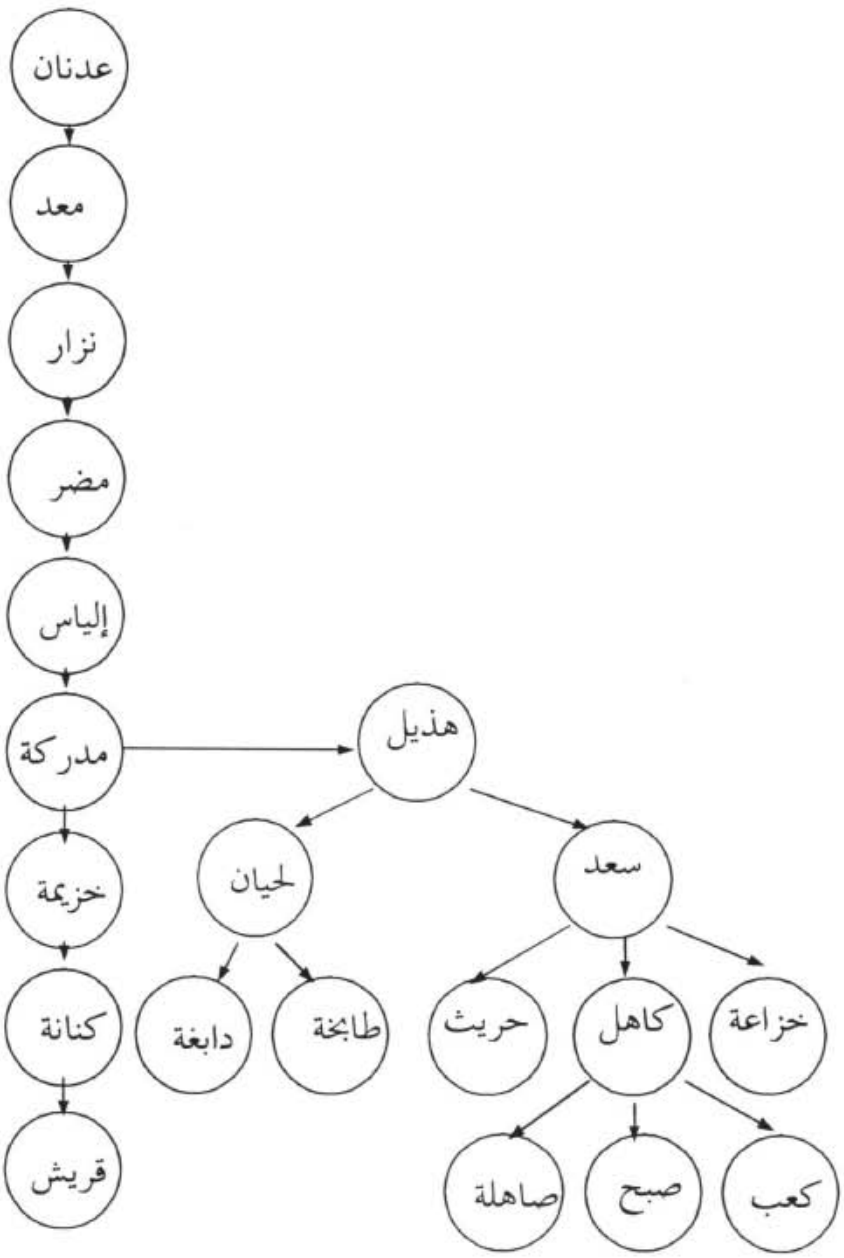

** هذا الرسم ناقص ذلك أنني ركزت اهتمامي على "هذيل" و أشهر بطونها فهو قابل للتغيير، لمن أراد الاستزادة ينظر : الوسيط في الأدب العربي وتاريخه لأحمد الإسكندري و مصطفى بو عناني بك، دار المعارف ، مصر، د.ت، ط1 : ص3-7.

2- منازل هذيل :

استوطنت قبيلة هذيل شمال الحجاز، و توزعت عشائرها في العصر الجاهلي على جبال الحجاز الفاصلة بين تهامة و نجد.[22]

و جغرافيا حاول الدكتور أحمد كمال زكي أن يحدد موقعها بدقة فقال: "استطاعت هذيل أن توزع عشائرها على منطقة بالحجازيين خطّي عرض 20° و 25° شمالا".[23]

أمّا المناطق الّتي سكنتها هذيل، كما ذكر ابن خلدون فقد كانت متصلة بجبل غزوان*** المتّصل بالطّائف، كما ذكر ابن خلدون أنّ لهذيل أماكن مياه أسفل الطّائف من جهة نجد و تهامة بين مكة و المدينة، غير أنّ هذيل تركت أماكنها و توزّعت على الممالك الإسلامية بعد الفتح الإسلامي، حتّى أنّه لم يعد لها حيّ يطرق على حدّ تعبير ابن خلدون.[24]

و الملاحظ أنّ قبيلة هذيل سكنت باعالي مدن ثلاث : مكة، الطّائف، و المدينة، وهي رغم ذلك لم تتأثر بحاضرة هذه المدن، بل لم تبحث عن السيادة بها، فمكّة المكرّمة كانت قبيلة قريش هي سيدتها إذ لم يبرز لهذيل فيها نشاط يذكر، كذلك المدينة التي كان معظم سكانها من الأوس و الخزرج و يهود بني قريضة و بني النّضير، أمّا الطائف فقد اشتهرت فيها قبيلة ثقيف، و هي الأخرى لا يوجد لهذيل فيها نشاط يذكر أو شهرة تثير اهتمام المؤرخين والرّواة باستثناء ما يروى هنا و هناك عن وفود بعض رجال هذيل إمّا للبيع أو الشّراء أو لقضاء أوقات اللّهو و شرب الخمر و لعب الميسر مما يثبت أنّ هذيلا كانت متفرّقة في الجبال المحيطة بتلك المناطق، و لم تسكن في قلب المدن.[25] حتّى أنّ بعض المؤرخين كانوا يشيرون إلى منازل هذيل بقولهم "سراة هذيل"** دون أيّ تفصيل أو تحديد، و قد يتساءل القارئ أحيانا عن هذه السروات ما صفتها ؟ و بم تتميّز ؟ و الأهمّ كيف نزلها الهذليون واستقرّوا بها ؟

---

[22] أبو ذؤيب الهذلي حياته و شعره للدكتورة نورة الشملان، عمادة شؤون المكتبات- جامعة الرياض، ط1، د.ت: ص04.

[23] شعر الهذليين : ص:09.

*** غزوان هو الجبل الّذي توجد على ظهره مدينة الطائف، و يعدّ من أمنع جبال الحجاز.

[24] تاريخ ابن خلدون المعروف بكتاب : العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر للعلامة عبد الرحمن بن خلدون، دار الكتاب اللبناني، 1981م،ة ط1: 319/2.

[25] أبو ذؤيب الهذلي : ص7، و ينظر شعر الهذليين : ص11.

** السراة : يقال سراة الجبال : أعلاها، كما يقال لظهر الدابة السّراة.

أ- سراة هذيل:

و تنقسم السّراة في جزيرة العرب إلى قسمين : شمالية و جنوبية، و تفصل بين السّراة الشمالية و السّراة الجنوبية بلاد عسير، ففي السّراة الأولى (الشمالية) سكن الهذليون، وهذه المنطقة بالّذات تعدّ جزءا هاما من سلسلة جبال تقع غرب شبه جزيرة العرب، و هي تنحدر انحدارا فجائيا إلى السّاحل بينما يتدرّج هذا الانحدار نحو هضبة نجد، وتتخللّها وديان كثيرة.[26]

و قد رسم القلقشندي "منازل هذيل في صورة سريعة و موجزة فقال : "فديارهم في السّروات، و سراتهم متصلة بجبل غزوان المتّصل بالطّائف، ولهم مياه و أماكن في جهات نجد و تهامة بين مكة و المدينة".[27]

و هو ما ذهب إليه "البكري" حينما أراد وصف ديار هذيل قائلا : "و كانت لهذيل جبال من جبال السّراة، ولهم صدور أوديتها و شعابها الغربية".[28]

و عليه نستطيع أن نحدّد سراة هذيل فنقول : إنّها كانت بين مكّة و المدينة،و أشرفت على تهامة من غربها، و انحدرت شرقا إلى نجد فاتصلت بالطّائف ، حيث كان للقبيلة قربها بعض العشائر، كما روي أنّ رهطا من هذيل هبطوا بجنوب مكّة و الطّائف و سكنوا شمال اليمن** ، و هذا ما أكّده بن خلدون عندما تحدّث عن بني صاهلة من هذيل و خبر سكنهم بأرض اليمن.[29]

---

[26] شعر الهذليين: ص09.

[27] فلائد الجمان في التّعريف بقبائل عرب الزمان للقلقشندي أبي العباس أحمد بن علي ، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتب الإسلامية ، دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني، د.ت، ط1 : ص133-134.

[28] معجم ما استعجم من أسماء البلاد و المواضع لأبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي ، تحقيق : مصطفى السقا، المعهد الجيلي للأبحاث العربية، 1945م، ط1:1/88.

** يبدو أنّ ناقلي هذا الخبر قد استلهموه من قول شاعرهم:

ألا أبلغ يمانيا بأنّا ... قتلنا أمس رجل بني حبيب

[29] تاريخ ابن خلدون، 678/2.

خريطة جزيرة العرب و مصر [30]

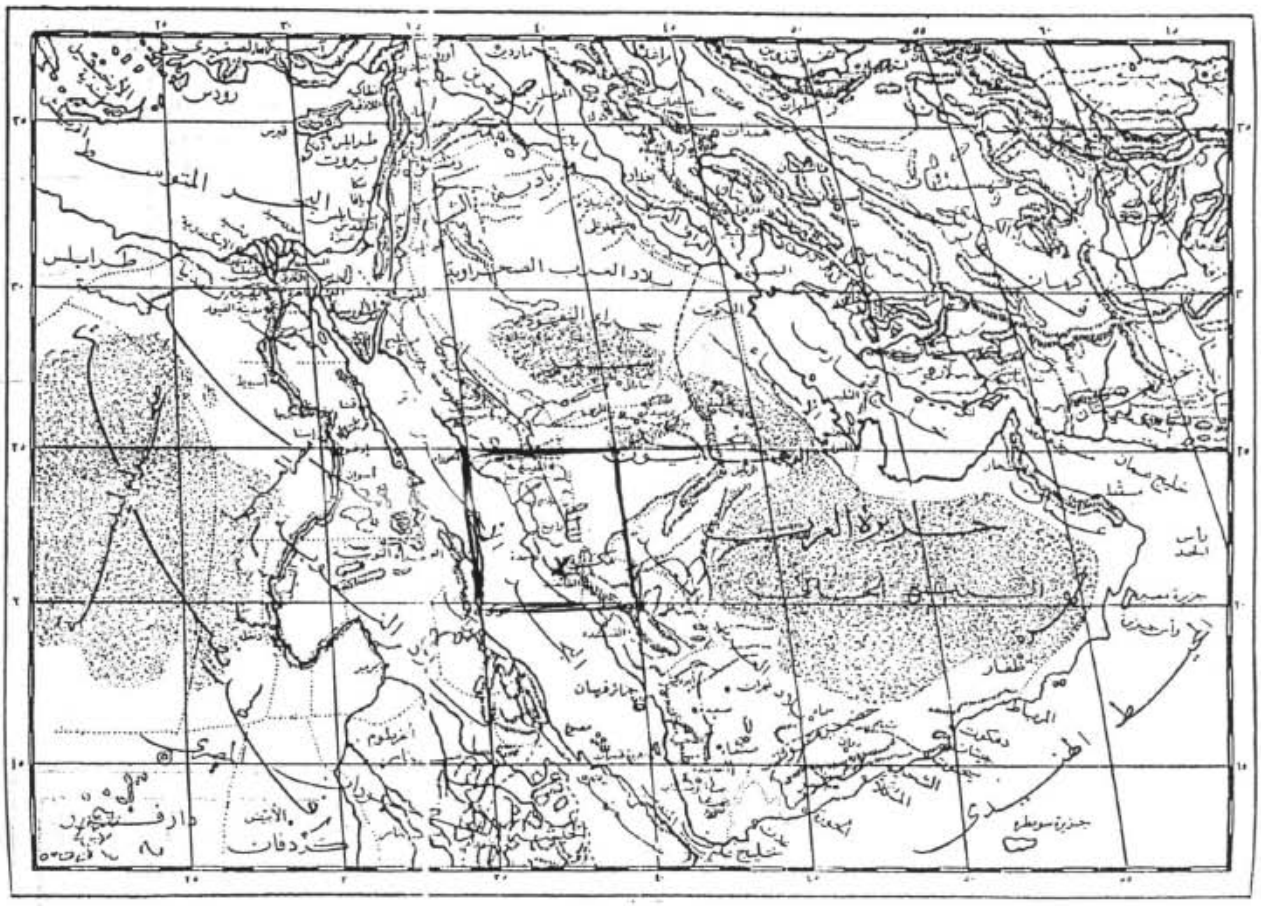

[30] حضارة العرب لغوستاف لوبون ونقله إلى العربية عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1956، ط3، ص 41.

شبه الجزيرة العربية [31]

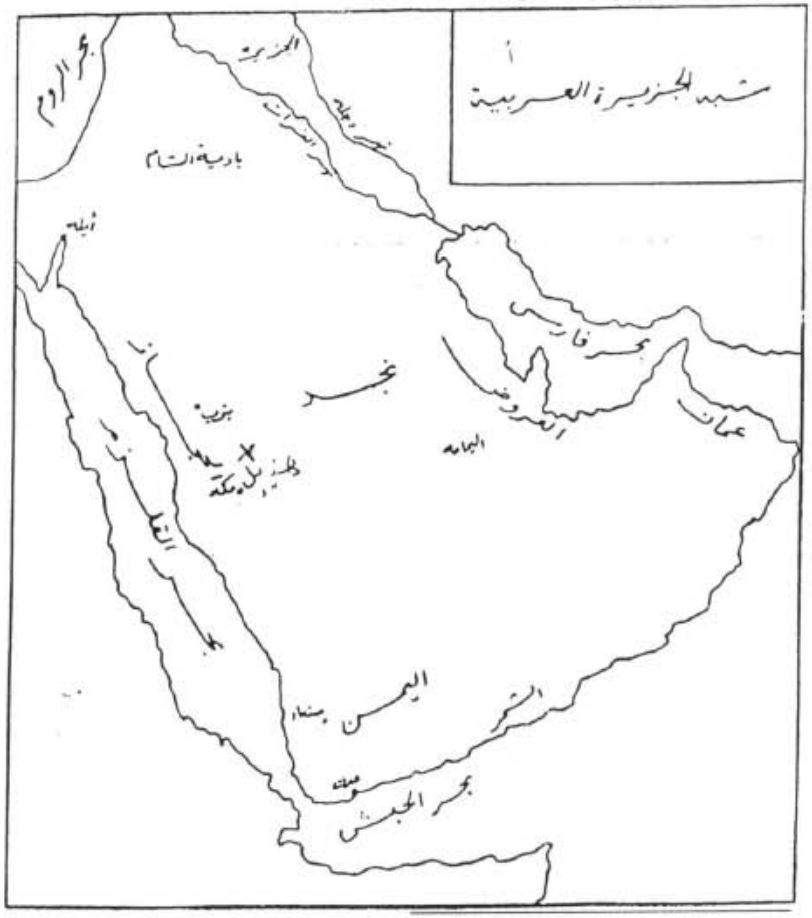

القبائل العربية في الإسلام [32]

[31] اللهجات العربية في القراءات القرآنية لعبده الراجحي، دار المعارف بمصر،، 1969م، ط1: ص1.

[32] المرجع نفسه: ص2.

إنّ الدكتور أحمد كمال زكي يرى أنّ هذيل في الواقع لم تسكن هذه المساحة الواسعة، إنّما كانت تنتقل فيها مع وجود بعض قراها هنا و هناك، إذ كان نشاطها أوضح ما يكون حول مكة، حتى ظنّ الكثيرون - خطأ- أنّ منازلها كانت هناك فقط.[33] و في المقابل نجد نورة الشملان تذكر أهم المناطق الّتي سكنها الهذليون بين مكة والمدينة و تحددها بدقّة فتقول: "أمّا المناطق الّتي سكنتها هذيل فأهمّها : عرنة[***] و عرفة و بطن نعمان[***] و نخلة[***] ورحيل و كبكب[***] و البوباة و أوطاس و غزوان[34]". و تسترسل نورة الشملان في حديثها عن منازل هذيل حتّى أنها تستدل بين الحين و الآخر ببعض ما ورد في أشعارهم من أسماء و رموز لا مجال لذكرها هنا .

ب- طبيعة إقليم سراة هذيل :

إنّ توزّع عشائر هذيل بمناطق مختلفة ، جعلها تعيش بإقليم مليء بالتناقضات، إقليم وصفه الكثيرون بالشاذ الغريب، فالنّاظر إلى طبيعة الإقليم سيجد بقاعا مبعثرة بين فلاة وصخور و أباطح واسعة غريبة، و أرض تتداولها الصلابة حينا و السهولة حينا آخر.[35]

و الإقليم في جملته كما وصفه جوستاف لوبون "يوجد في منطقة تكون نهايتها العظمى للحرارة عالية في الصّيف و في الشّتاء يقلّ المتوسط الحراري عن عشرين درجة مئوية بينما يتراوح الفرق السنوي بين 7° و 18° مئوية".[36]

و هذا كما يبدو فرق هائل، و في الداخل لا تهبط الحرارة نهارا إلى أقل من 43° وليلا إلى 38°، مثل هذه المناطق قد تتعرض لهبوب رياح شمالية شرقية جافة، و هذه الرياح

---

[33] شعر الهذليين: ص14-15.

[***] عرنة : هو واد بجوار عرفات، و عرفات أو عرفة : هو موقف الحجيج المعروف، نعمان : واد بين مكّة و المدينة.

[***] أمّا نخلة : فقد ذكر أنّه يوجد نخلتان : نخلة اليمانية و نخلة الشمالية، و نخلة الشمالية تجتمع سيولها في واد يسمّى اليوم "واد فاطمة"، و رُحيل : موضع قريب من البصرة.

[***] أمّا كبكب : فهو جبل خلف عرفات : ينظر معجم ما استعجم 178/2.

[34] أبو ذؤيب الهذلي: ص04.

[35] شعر الهذليين: ص12.

[36] حضارة العرب : ص40.

الموسمية لا تصل الحجاز حتّى تكون قد أفرغت ماءها في مرتفعات اليمن الجنوبية. لذلك تعدّ الأمطار باعتبارها عنصرا حيويا أهمّ ما يحتاج إليه الإقليم، بل إنّ سكّانه يترقبون نزولها ويصلّون لها صلاة خاصة إذا تأخرّ موعدها، و حين تنزل قد تستمر أيّاما، و قد تدوم بضعة أشهر، و لكن متى احتبست تعرّض الإقليم كله للقحط المميت.[37]

و لاعجب من أن نرى بعض شعراء هذيل يحتفلون بالمطر، و يصفون السحاب والبرق و الرعد و السيول في قصائدهم.

و قلّة المطر راجعة حتما إلى كثرة الصّحاري بشبه الجزيرة، هذه الصّحاري الّتي تقتحم إقليم الحجاز فتحيله بقاعا قاحلة جرداء تمتدّ إلى جانبها مناطق غنية و خصبة فتشكّل بذلك تمازجا طبيعيا غريبا، و قد أشار الدكتور أحمد كمال زكي إلى هذا التناقض عندما وصف إقليم هذيل و سراتها فقال : ".... إنّما نجد مظاهر التّناقض واضحة من النّاحية الجغرافية أيضا، فبينما نجد الجبال العالية الّتي تتجمّد قممها كجبل غزوان – و كانت تسكنه هذيل- نجد إلى جانبها أغوارا موغلة في العمق و تركد في حرارة قاسية، و إلى جانب الوديان الخصبة ذات الجوّ المعتدل نشاهد قفارا و عساء الرّمال دقيقة الحصى، و في موضع تدبّ الحياة و ينمو الكلأ و تورق الأشجار، و في موضع آخر تموت التّربة و يمتنع الماء و تقفر الأرض".[38]

إذن ألم يكن على حق من وصف هذا الإقليم بالشذوذ ؟ و هل نتوقع وجود حياة هادئة بمثل هذا الإقليم؟ طبعا لا فقد أثّر هذا التناقض على حياة أولئك العرب، فهم مضطرّون دائما إلى التنقل و إلى النّزاع.

ج- نزول هذيل بالسّراة :

لا شك أنّ حياة السّراة شاقة، و لسنا ندري بالضبط أسباب اختيار عشائر هذيل لمثل هذه الحياة، و لا نعلم كيف نزلت هذيل بهذه السراة بالذات فهذا أمر لا سبيل إلى الجزم به أو القطع فيه، غير أنّ الإخباريين يروون أنّ قبيلتي مضر و ربيعة ظلّتا بالحجاز متحالفتين

[37] شعر الهذليين : ص348.

[38] المرجع نفسه: ص10-11.

حتّى وقعت بينهما الحرب فارتحلت ربيعة ، و انقسمت مضر إلى قيس عيلان و خنـــدف ، وخندف -كما هو معلوم- هي أمّ طابخة و مدركة، وقد حدث أن شـــبّ قتـــال بينهمـــا فانسحبت قيس مخلّفة خندق، ثمّ لم تلبث طابخة أن رحلت إلى نجد في حين ظلّت مدركة في تهامة و ما حولها.[39]

و لمّا نزلت كنانة جنوب الحجاز احتلّت هذيل السّراة، و أصبح لها صدور أوديتهـــا وشعابها الغربية، أمّا مسايل تلك الشعاب و الأودية فقد أشرفت على الفرع الضّخـــم مـــن مدركة وهو خزيمة. هذا في حين كان من جيرانها "فهم" و "عدوان" من قيس عيلان، و يبدو أنّ نزول هذيل بهذه الجبال كان شيئا لم تجد منه بدّا؛ فهي في مدركة فرع صغير إذا قيســـت بخزيمة[40].

[39] معجم ما استعجم : 1/87-88.

[40] شعر الهذليين : ص11.

ثانيا : هذيل اجتماعا و ثقافة

كان العرب القدماء بما فيهم هذيل يسكنون الصحـــراء، و يعيشـــون و في أجـــواء طبيعية جدّ قاسية.

و قد حدّثنا ابن خلدون غير مرة في مقدمته عن وعورة حياة أهل البادية و ما يـــترتّب عنها، هؤلاء العرب الّذين لا يستقرّون في مكان همّهم الغزو و الخراب، يبحثون دوما عـــن الكلإ و الماء، فإذا نضب الماء و قلّ الكلأ ارتحلوا بخيامهم من مكان إلى مكان، و هذا القلـــق المستمر أثر قي عقليتهم و أعطى مجتمعهم ميزة خاصّة.[41]

و في مثل هذه الظروف انبعث مجتمع هذيل بما يحمله من ثقافة قبلية جسّدت بحقّ جزءا من تاريخ العرب و نمط عيشهم، و الحقيقة فقد وجدت نفسي مضطرة إلى التركيز في بحثـــي على مرحلتين من حياة هذيل ، و هما : الحياة في الجاهلية و الحياة في صدر الإسلام ، وإنّـــي أعزو سبب هذا التّقسيم إلى معرفة مدى فاعلية القبيلة في هاتين المرحلتين.

1- هذيل في الجاهلية :

في هذا العصر كانت القبيلة تمثل وحدة سياسية مستقلة و قائمة بذاتها، كما كـــانت وحدة اجتماعية لها نظمها و أعرافها و تقاليدها، فكلّ قبيلة كانت أشبه بدولـــة مصغّـــرة[42] فهل كانت هذيل كذلك ؟

أ- هذيل في عهد الأساطير :

أوّل ما يلقانا من تاريخ هذيل القديم ما يرويه الطبري عن خروج تُبّع* في العرب يسير حتى ظاهر الكوفة أين تحيّر القوم، فسمّيت بذلك "الحيرة"، و كان فيهم من قبائل العـــرب: تميم وطيئ و كلب و جعفى و لحيان و هذيل.[43]

---

[41] العصبية القبلية و أثرها في الشعر الأموي للدكتور إحسان النص، دار اليقظة العربية، بيروت، ط1، 1964م: ص59.

[42] القيم الروحية في الشعر العربي حتى منتصف القرن العشرين لثريّا عبد الفتاح ملحس دار الكتاب اللبناني ، ط1، د.ت، ص 13.

* تبع: هو أحد ملوك اليمن يدعى قابوس و اسمه الكامل : أبو كرب بن ملكي كرب بن زيد بن عمر بن تبع و يقال له : ذو الأذعار.

[43] تاريخ الرسل و الملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، مكتبة الخياط، بيوت، ط1، د.ت: 686/2.

لكن أمر وجود هذيل مع من وجد في الحيرة مشكوك فيه من وجهة نظر الدكتور أحمد كمال، الذي يستبعد صحّة هذا الخبر و يستفيض في مناقشته مستدلا بآراء الكثير من الرواة والإخباريين.[44]

و يروي الطبري أيضا حكاية التّبع الذي خرج طالبا اليمن فحاولت هذيل الإيقاع به طمعا في ماله[45]. و مع ذلك فمثل هذه الأخبار اعتبرها الكثيرون ضربا من الأساطير لا يؤخذ به.

و تمضي فترة طويلة دون أن تسمع عن هذيل أخبار إلى أن يفتح الأحباش اليمن فيبني أبرهة كنيسة ضخمة يقال لها القليس بغرض صرف حجّاج العرب عن مكّة، و انتشر خبر القليس بين عرب الشمال بسرعة، فخرج أحدهم إليه، و قعد فيه لكنّه أتى أمرا غضب له أبرهة، و لمّا التمس ذلك الرجل وجده قد رجع إلى أهله، فأقسم ليسيرنّ إلى البيت فيهدّمه. و خرج يريد البيت إلى أن بلغ أرض كنانة فأرسل إليه أهل تهامة رجلا من هذيل يقال له عروة بن حيّاض، لكنه لم ينجح في مهمته فقد صادف في طريقه رسول أبرهة فرماه فقتله، وكان ذلك بمثابة الشرارة الّتي أشعلت الحرب، إذ اقتحم بعد ذلك ابرهة مكّة فاستاق أموال تهامة من قريش، و في هذا الظرف تحالفت هذيل مع قريش و بعض كنانة لقتال أبرهة لكنهم تراجعوا لإدراكهم قوة الحبشة.[46]

و القصة برّمتها لا تعنينا بعد ذلك، فما يهمّنا هو دور هذيل، فبعد إنهزام أبرهة لجأ بعض رجاله إلى جبال هذيل، فوجد فيهم الهذليون مغنما فقتلوا منهم و أسروا كثيرا.[47]

ب- هذيل بعد عهد الأساطير :

و يمكن تحديد هذه المرحلة ابتداء من القرن السادس ميلادي حيث توافر لهذيل كلّ ما توافر لقبائل العرب قبل الإسلام؛ فقد أصبح لها نظام فعلي إلى جانب تقاليد و أعراف تدين بها، و علاقات تربطها بجاراتها من القبائل الأخرى، علاقات تقوم على المنافسة و التربص

[44] شعر الهذليين: ص24.

[45] تاريخ الرسل و الملوك : 903/1.

[46] نفسه : ص 44.

[47] شعر الهذليين: ص 25.

وتجعل أيّام هذيل مصبوغة بلون أحمر ممّا يعكس ظروف هذه القبيلة المضطربة الّتي لم تطمح يوما في سؤدد.[48]

و أخبار هذيل أوضح في الجاهلية، فكتب الأخبار تحدّثت عن هذه القبيلة و حروبها وأيّامها و أعلامها في الجاهلية فقط إذ بدخول الإسلام توقّف الحديث عن هذيل لأسباب غير واضحة . و على أيّة حال فقد خصّصت ما بقي من البحث للحديث بإسهاب عن مميّزات مجتمع هذيل، و ما أمكنني جمعه من أخبارها، لكنّي أودّ أن أشير إلى السبب الّذي دعاني إلى تسمية هذه المرحلة من حياة القبيلة بـ "عهد ما بعد الأساطير" يتمثل في وضوح أخبارها وتسلسلها بأمهات الكتب و على ألسنة الثّقات من الرّواة و الإخباريين.

2- مميّزات مجتمع هذيل :

هذيل كسائر قبائل العرب كانت تدين ببعض العادات و التقاليد كالكرم والشجاعة ونجدة الجار و احترام حقوقه، لكنّ مجيئ الإسلام حارب بعض هذه العادات كشرب الخمر واستباحة النّساء و الثأر...، كما بارك البعض الآخر منها كالصّدق و الأمانة و حفظ الجوار..."[49].

ولقد أظهر الهذليون اعتزازهم بالكثير من الصفات في شعرهم من ذلك :

رفعة النسب و الإقدام :

و في ذلك يقول : "حذيفة بن أنس"* مفتخرا بشجاعة قومه و إقدامهم:[50]

نَشَأْنَا بَنِي حَرْبٍ تَرَبَّتْ صِغَارُنَا ∴ إِذَا هِيَ تُمْرِي بِالسَّوَاعِدِ كَرَّتْ**

وَ نَحْمِلُ فِي الأَبْطَالِ بِيضًا صَوَارِمًا ∴ إِذَا هِيَ صَابَتْ بِالطَّوَائِفِ تَرَّتْ**

وَمَا نَحْنُ إِلاَّ أَهْلُ دَارٍ مُقِيمَةٍ ∴ بَنَعْمَانَ مَنْ عَادَتْ مِنَ النَّاسِ ضَرَّتْ

---

[48] شعر الهذليين: ص27.

[49] أبو ذؤيب الهذلي : ص16.

* حذيفة بن أنس : أحد بني عامر بن عمر و بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل .

[50] ديوان الهذليين : الدار القومية للطباعة و النشر ، القاهرة، ط1، عام 1965م: 29/3.

** بيضا صوارما : سيوف ، صابت : نزلت، الطوائف : النواحي يريد الأيدي و الأرجل.

** ترّت : قطعت، ينظر في الديوان : 29/3-30.

فالشاعر هنا يشيد بشجاعة قومه و إقدامهم الّذي نشأوا عليه منذ نعومة أظـــافرهم، وبنفس الطريقة يفتخر "عمرو بن هميل اللّحياني" برفعة نسبه و عراقة أصله فيقول : [51]

خُـــزَيْمَةُ عَمّـــنَا وَ أَبي هُذَيْلٌ ∴ وَكُـــلُّـــهُم إِلَى عِزٍّ وَلَّيت **

أَبي لِي صَارِخٌ كَالسَّيْلِ نَهْدٌ ∴ وَعِزٌّ لَـــنَا لاَ يَـــزُولُ ثَبِيتُ

فعمرو يعتبر حياة الغزو و السّؤدد الّتي يعيشها قومه مكرمة يفخر بها.

حماية الجار :

حماية الجار من الأمور الّتي اهتمّ بها العرب و اعتزوا بها خاصـــة ســـكان البـــوادي والقفار، فحياتهم غير الآمنة و المهدّدة جعلت علاقة الجوار متينة، إذ تختلف القبيلة مع جارتها و قد يتطوّر هذا الخلاف و يبلغ درجة سفك الدّماء، لكن سرعان ما يزول هذا الخـــلاف إذا ما تعرّضت إحدى الجارتين لغزو خارجي، حيث تسارع القبيلة لنصرة جارتها و بـــذل مـــا تستطيعه. و في مثل هذه الظروف كانت هذيل تحيا تناصر و تجـــير، لكنّهـــا تعـــادي مـــن يعاديها، و قد تخوض حربا ضروسا لردّ أسير إلى أهله، و في ذلك يقـــول شـــاعرهم "أبـــو جندب" [52]:

فَلاَ تَحْسَبَنْ جَارِي لَدَى ظِلِّ مَرْخَةٍ ∴ وَلاَ تَـــحْسَبَنّه فَقَعَ قَاعٍ بِقَرْقَرٍ **

وَ لَكِنَّنِي جَـــمْرُ الغَضَا مِنْ وَرَائِهِ ∴ يُـــخَفِّرُنِي سَيْفِي إِذَا لَمْ أُخَفَّرْ

الخمر :

و شربها كان من العادات المعروفة في الجاهلية بشكل خاص، لذلك ذكرها الهذليـــون في شعرهم و وصفوا لونها و طعمها و تأثيرها و إن لم يطيلوا في ذلك، فهم أعـــراب غـــير مستقرّين لا نتوقع أن نجد في شعرهم وصفا لمجالس الخمرة على حدّ تعبير الدكتـــورة نـــورة الشملان.[53]

---

[51] عمرو بن هميل : شاعر جاهلي ذرب اللّسان برع في الفخر و الهجاء و البيتان موجودان في "شرح أشعار الهذليين" لأبي سعيد السكري، تحقيق عبد الستار أحمد فرّاج، مكتبة دار العروبة ، ط1، د.ت: 2/815-818.

** خزيمة : أحدا أكبر بطون هذيل ، نهد : ضخم، ثبيت : ثابت.

[52] أبو جندب بن مرّة الفردي شاعر فحل، و يبدو أنّه جاهلي إذا لم أعثر على أخبار تدلّ على أنّه مخضرم. ينظر ديوان الهذليين: 3/92.

** مرخة : شجر لا يمكن الإحتماء به.فقع : كمأ رديئ. القرقر : الأرض و هو يريد القول : لا تحسبنّ جاري بمذلّة كالكمأة الرّديئة الّـــتي توطـــأ وتؤخذ و ليس عليها سفر.

[53] أبو ذؤيب الهذلي: ص 19.

المرأة :

"كلّ مجتمع إنساني يجمع المرأة و الرجل في مشاركة حيّة يختلف دور كلّ منهما ويتفاوت بتفاوت ذلك المجتمع"[54]. على ضوء هذه النّظرة نستشعر أنّ وضع المرأة في المجتمع البدوي يختلف تماما عن وضعها في الحضر، لكن مع هذا يبدو أنّ المرأة في مجتمع هذيل كانت تتمتّع بقدر من الحرية لم تحظ به عند غيرها من القبائل، و تحظى بقسط كبير من اهتمام الرجل بها و اهتمامه بها، وفي شعرهم شواهد كثيرة تدلّ على ذلك.

و المرأة باعتبارها شريكة أو حبيبة تختلف في نظر كلّ شاعر، فقد يحبّها دون أن يصارحها، و يحرص على حياتها حتّى من نفسها، فيتظاهر إن رآها - بعكس ما يبطن حرصا على كرامتها و خوفا على عرضها، و هو حال أبي ذؤيب* كلّما لمح محبوبته.[55]

مالي أحـــنّ إذا جمالك قرّبت ∴ و أصدّ عنك و أنت منّـــي أقرب

وقد يضرب الشاعر بعرض الحائط كلّ عرف أو تقليد يحرّم مغازلة المحبوبة علنا ، فيذكرها جهرا و يناجيها دون أيّ خوف أو وجل مثل ما هو موقف أبي العيال حين يقول:[56]

بخلت فطيمة بالّذي توليني ∴ إلاّ الكلام و قلّما يجديني

و لعلّ حادثة خيانة محبوبة أبي ذؤيب له مع رسوله لها علاقة وثيقة بما قلناه عن حريّة المرأة الهذلية و جرأتها[57]، كما يمكن الرّبط بين هذه الحادثة و بين سؤال هذيل للرسول صلى الله عليه و سلم في إباحة الزنا، كذلك يمكن الرّبط بين هذا الخبر و عادة ختان النساء الّتي يعدّها الهذليّون مفخرة، فهذا هذلي يهجو خصما له قائلا : [58]

إلى معشر لا يختنون نساءهم ∴ و أكل الجراد فيهم غير أفئد

---

[54] أبو ذؤيب الهذلي: ص20.

* أبو ذؤيب : هو خويلد بن خالد بن محرث بن مخزوم بن صاهلة بن كاهل بن الحارث بن سعد بن هذيل، شاعر جاهلي إسلامي.

[55] ديوان الهذليين : 63/1.

[56] المصدر نفسه :256/2.

[57] خبر خيانة محبوبة هذيل مفصل في ديوان الهذليين : 152/1.

[58] شرح أشعار الهذليين : 393/1، و البيت لشاعر يقال له : معقل بن خويلد الهذلي.

فمجتمع هذيل و إن قدّس المرأة و بجّل شخصها، فإنّه لم يلـــغ عـــادة وأد البنـــات، وكتب التاريخ و الأخبار في جملتها أكّدت نسبة هذه العادة إلى قبائل شبه جزيرة العرب بمـــا فيهم هذيل.

العصبية القبلية :

و يبدو أنّ هذيل و على غير عادة العرب لم تكن تحفل بما يعرف بالعصبيّـــة القبليّـــة؛ أي أنّ أفرادها لم يركّزوا اهتمامهم على علاقاتهم الدّاخلية، بل و أكثر فإنّ رابطة الـــدّم لم تكن تعني لهم شيئا مقابل ما قد يستفيدون منه من مردود مادّي أو ما شابهه و إنّ ما يؤكّـــد هذا الرأي ربما هو تلك الأخبار المتفرّقة في كتب الأخبار و التاريخ حوّل أيّام هذيل ، فهـــذا أبو الفرج الأصفهاني يورد إحدى قصص أبي جندب الّذي كان له جار من بـــني خزاعـــة يقال له حاطم أوقعت به بنو لحيان- وهم أهل أبي جندب - فقتلوه و استاقوا أمواله و قتلوا امرأته، و لمّا تعافى أبو جندب بعد مرض خرج من أهله حتّى قدم مكّة فشقّ ثوبه و جعـــل يصيح قائلا: [59]

إنّي امرؤٌ أَبْكِي عَلَى جَارَيْهْ ∴ أَبْـــكِي علَى الكَعْبِيِّ وَالكَعْبِيَّهْ**
وَلَوْ هَلكْتُ بَـــكَيَا عَـــلَيْهْ ∴ كَانَـا مَكَانَ الثَّوْبِ مِنْ حَقْوَيْهْ

و لمّا فرغ من طوافه و قضى حاجته من مكّة، خرج و اجتمع ببعض خلعاء وصعاليك بكر و خزاعة فاستجاشهم على بني لحيان ثأرا لما حلّ بجاره، فقتل منهم، و سبى من نسائهم، ثمّ أنشأ يقول : [60]

لَـــقَدْ أَمْـــسَى بَنُو لِحيَانَ مِنّي ∴ بِحَـــمْدِ اللهِ فِـــي خِزْيٍ مُبِينِ
تَرَكْتُهُمْ عَلَى الرَّكَبَاتِ صُغَّرًا ∴ يُشِيبُونَ الذَّوَائِبَ بِالأَنِـــينِ

---

[59] الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني 250/21.

** يريد القول : سأبكي بجوارهما (الجار و زوجته) و لو هلكت طلبا للثأر لأنّهما كريمان

[60] الأبيات الأربعة موجودة بـــ : ديوان الهذليين : 86/3-90.

كان هذا ملخّصا عن أهمّ ملامح مجتمع هذيل، أردت من خلاله تقديم صورة لحياة هؤلاء الشعراء الّذين شهد لهم كبار الرّواة كالأصمعي، و أماثل الأئمة كالشافعي، وصدور المؤلّفين كأبي سعيد السكري بالفصاحة و سعة البيان.

3- حياة هذيل الدينية :

أ- عقائد هذيل قبل الإسلام :

كانت هذيل مثل سائر القبائل العربية تدين بالوثنية، و كلّ الكتب أشارت أنّ "سواع" كان صنم هذيل، و كان واحدا من الأصنام الّتي عبدت في قوم نوح، فقد كان لهمذان ثمّ أصبح لهذيل، و في ذلك يقول رجل من العرب:[61]

تراهم حول قيلهم عكوفا .:. كما عكفت هذيل على سواع

جاء في الأثر : "إنّ أوّل من اتخذ تلك الأصنام من ولد إسماعيل و سمّوها بأسمائها حين فارقوا دين إسماعيل هذيل اتخذت سواعا فكان لها بُرهاط*** أمّا الّذي دعاها إليه فهو الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل".[62]

وقد أشرفت على سدانة سواع لحيان، و الظاهر أنّ قبيلة هذيل لم تكن تعبأ به كثيرا، و بدليل أنها لم تذكره أبدا في شعرها رغم أنّه تراث ضخم صوّر جزءا كبيرا من حياتها في الجاهلية.[63]

و لئن اشتهرت هذيل بعبادة سواع، فإنها لم تنفرد بعبادته إذ شاركتها بعض قبائل مضر ككنانة و قيس، عيلان... و في المقابل عبدت هذيل إلى جانب خزاعة "منّاة" آلهة القضاء و القدر. فهذيل ككل قبائل العرب لم يكن يعنيها أن تنصرف إلى صنم واحد، ذلك أنّ القبائل العربية كانت تعبد صنما خاصّا بها، و اصناما أخرى كانت لغيرها.[64]

---

[61] السّاميون و لغاتهم ، تعريف القراءات اللغوية و الحضارية عند العرب للدكتور حسن ظاظا، الدار الشامية بيروت، دار القلم دمشق، ط2، د.ت: ص116-117.

*** برهاط : واد يقع قرب مكّة.

[62] بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب تأليف السيد محمود شكري الألوسي ، شرح محمد بهجت الأثر ، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، ط1، د.ت، 289/1.

[63] شعر الهذليين : ص48.

[64] المرجع نفسه: ص50.

و يذكر الطّبري أنّ سواعا هدم في السّنة الثامنة للهجرة و هي السنة الّتي فتحت فيها مكة، هدمه عمرو بن العاص، و يذكر أنّ عمرا حين انتهى إلى الصنم : "قال له السادن: لا تطيق هدمه: قال له عمرو : أنت على الباطل بعد؟ ثم هدمه، و لم يجد في خزانته شيئا، فالتفت إلى السّادن قائلا : كيف رأيت؟ قال : أسلمت و الله".[65]

إضافة إلى ذلك كانت هذيل تأخذ بمجموعة من المعتقدات الخرافية التي لا تقوم على أي أساس علمي، بل تحكمها الصدفة البحتة كالتشاؤم ببعض الحيوانات مثل الغراب و نعيقه، كذلك ظاهرة زجر الطير** ، علما أنّ هذيل كانت تتشاءم بالسانح عكس القبائل الأخرى الّتي كانت تتشاءم بالبارح.** [66]

ب- إسلام هذيل :

في الحقيقة ليس هناك في الكتب ما يشير إلى ظروف إسلام هذيل و لاحتّى متى أسلمت، إذ لا نعرف الدور الّذي كانت تلعبه هذه القبيلة في فترة البعثة النبوية، و ذلك راجع لاتساع رقعتها و تفرّق عشائرها و لسكوت كتب التاريخ عنها، لهذه الأسباب لا يمكن الجزم بشيء في هذا الموضوع، إنّما تروي بعض الأخبار أنّ الرّسول صلى الله عليه وسلم كان يأتي ذا المجاز - و هي سوق هذيل - يعرض نفسه على النّاس داعيا إلى الدّين الجديد.[67]

و ربّما كان ذلك أوّل احتكاك بين الرسول صلى الله عليه وسلم و هذيل، ثمّ يعترضنا خبر إسلام الصحابي عبد الله بن مسعود - باعتباره هذليا - هذا الّذيّ آثر صحبة الرسول الكريم كما استطاع أن يجهر بالقرآن في مكّة.[68]

و تأتي الهجرة الكبرى فغزوة بدر، تليها "أحد" في العام الثالث، و يحسّ الرّسول الكريم بحركة كبيرة تدبّر له في الخفاء لا من قريش بل من طرف هذيل، فيبعث عليه

---

[65] تاريخ الرسل و الملوك : 66/3.

** زجر الطير : هو أن يرمي الرجل الطير بحصاه و يصيح فإن ولّاه في طيرانه ميامنة تفاءل و إن كان العكس تطيّر. ينظر : أبو ذؤيب الهذلي : ص22.

** البارح : هو ما مرّ من الطير أو الوحش عن يميننا و السانح : ما مرّ يسارا .

[66] المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي جامعة بغداد ، ط2، د.ت : ص

[67] تهذيب سيرة ابن هشام لعبد السلام هارون ، دار الفكر، ط1، د.ت: ص93-94، و ينظر أسواق العرب، عرض أدبي وتاريخي، دار الشورى - بيروت، ط1، 1979م: ص 162-163.

[68] شعر الهذليين: ص51.

السلام من يتقصّى الخبر ليعلم أنّ سفيان بن نُبيح الهذلي زعيم اللحيانيين استطاع أن يجمع حوله حشدا كبيرا من الثائرين على الدين الجديد؛ على أنّ الله لم يشأ أن تمضي هذيل في عزمها إذا أحبط الرسول صلى الله عليه و سلم أمرها بقتل زعيم هذه الحركة.[69]

و يمرّ شهر على هذه الحادثة ، فيأتي جمع من هذيل إلى الرسول صلى الله عليهوسلم يدعي الإسلام و يرجو الرسول أن يبعث معهم جمعا من أهل الدين ليعلموهم الإسلام، فيلين قلب المصطفى عليه الصلاة و السلام، فيرسل معهم وفدا مكونا من خيرة فقهاء المسلمين وهم كما جاء في تاريخ الطبري : مرثد بن أبي مرشد الغنوي، و خالد بن بكير ، وعاصم بن ثابت، و حبيب بن عدي و زيد بن الدثنة، و عبد الله بن طارق، و خرج القوم ومعهم وفد الرسول صلى الله عليه وسلم، حتى أتوا الرّجيع - وهو ماء لهذيل قريب من مكة- فاستصرخوا هذيلا كلّها فانتبه أفراد الوفد و قاموا لقتال الكفار لكنهم هزموا، لقلتهم فقتل بعضهم و أسر بعضهم الآخر.[70]

و في أعقاب هذه الحادثة تبلبلت الأفكار، و كثرت الأقاويل و اشتدّت الأطماع، واستسلم بعض أهل المدينة لنوع من الشك كما انتهز المنافقون هذه الفرصة لنشر أكاذيبهم فقالوا : يا ويح هؤلاء المفتونين الّذين قتلوا هكذا، لا هم قعدوا في أهلهم و لا هم أدّوا رسالة صاحبهم[71]، فنزل قول الحقّ تعالى : {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ}[72]". فاشتدّ غضب الرسول و المسلمين على هذيل، و لعلّ هذا يفسر -في نظر أحمد كمال- سبب سكوت معظم الرّواة عن التّحدث عنها و الإهتمام بها لا سيما بني لِحيان إذ لا نقف بعد ذلك على أخبار هُذيل في عصر البعثة على الإطلاق كأنّما اختفت عن المعمورة إلى أن تفتح مكة و لا يطول الأمر بهذه الفئة الثائرة فتستكين و تخضع لسلطة الحق فيسلم معظم أفرادها، بل ربّما لم يبق على شركه إلاّ هؤلاء الموغلون في البادية.[73]

---

[69] شعر الهذليين : ص52.

[70] تاريخ الرسل و الملوك: 1431/1.

[71] شعر الهذليين : ص 52.

[72] الآية 204 من سورة البقرة .

[73] المرجع نفسه : ص 58-60.

4- نشاط هذيل الإقتصادي :

إذا كانت أنماط الحياة في إقليم الحجاز بشكل عام تختلف فلا شك أنّ حياة الآخذين بها تختلف و تتباين، إذ نجد طبقة من العرب تعنى بالزراعة و أخرى تنصرف إلى التجارة، وطبقة ثالثة تأخذ بالرعي و الصّيد، و كلّ من هذه تكاد تكوّن وحدة اقتصادية تستقلّ بحياتها في بيئة معينة.[74]

و هذيل باعتبارها تسكن الإقليم، لم تكن تعرف حياة الاستقرار فهي لم تنزل مدنا أو قرى، فكانت بذلك أميل إلى البداوة لا تملك نظاما اقتصاديا قائما، و إنّ وجود بعض عشائرها بمناطق غنية كأحد أهمّ مصادر الرزق، ففي غزوان بالذّات كانت ثمّة أشجار فاكهة تنتفع بثمارها هذيل.[75]

أمّا التجارة فلم تحدّثنا كتب التاريخ عن ممارسة هذيل لهذا النّشاط إطلاقا، لكنّني وجدت نفسي آخذ باستنتاج الدكتور أحمد كمال زكي حينما يقول ".. من السّهل أن نقول أن تجارة الحجاز لم تكن في يد هذيل و إنّما كانت في يد أهل يثرب و خيبر مكة، و يحدّثنا القرآن الكريم أنّه كان لقريش رحلتان كبيرتان إحداهما إلى اليمن زمن الشتاء، و الأخرى إلى الشام في فصل الصّيف : ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾[76] هذا عدا قوافلها الّتي كانت تقطع الحجاز طوال العام...".[77]

فهذيل لم تستطع أن تقف بتجارة أمام قوّتين هائلتين، قوّة اليهود و قوّة قريش، وبالتّالي كان حظّها في الإشتغال بالتّجارة محدودا جدّا، بل مقصورا على بعض المبادلات البسيطة و ذلك بحكم وجود عشائرها على الطرق التجارية.

و لنقف قليلا عند قول الله تعالى : ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾[78]. سنتأكد أنّ الإبل كانت عماد حياة الهذليين وأساس معاشهم، فهم

---

[74] شعر الهذليين: ص76.

[75] معجم ما استعجم : 811/2.

[76] سورة قريش.

[77] شعر الهذليين : ص78.

[78] الآية 5 من سورة النحل.

حرموا كلّ شيء سواها، لذلك كانت استقامة اقتصادهم مرتبطة بها و موقوفة عليها، فهم بدو اعتادوا امتلاك القطعان، و امتهنوا الرعي فلا وجود لنشاطات اقتصادية أخرى بإقليم كذلك الّذي عاشوا به.

و إذا كان الصّيد بالنسبة للعربي متعة و رياضة يعشقها فإنّه لدى كثير من عشائر هذيل أساس لمعاشهم، و شعرهم حافل بأحاديث الصيد، فهم يعرضون صورا إنسانية وبسيطة لصيّاديهم، فإذا هم أناس قست عليهم الحياة، لكنّهم مع ذلك ذوو بأس شديد تخفي أجسادهم الضعيفة أيدا لا حدّ له و جلدا استمدّوه من قسوة الجبل و صلابة الصّخور.[79]

و ممّا قيل في الصّيد مرثية صخر الغيّ* الّتي يبكي فيها أخا له و هي قصيدة رائعة يتخلّلها وصف دقيق و جميل لمظاهر الصّيد ، إذ يقول في مطلعها: [80]

لَعَمرِ أَبي عَمْرٍ وَلَقَدْ سَاقَهُ المنَا ∴ إِلى جَدَثٍ يُوزَى لَهُ بِالأَهَاضِبِ**

إلى أن يقول واصفا اقتناص الطّريدة :

أَحَاطَ بِهِ حتَّى رَمَاهُ وَقدْ دَنَا ∴ بِأَسْمَرَ مَفْتُوقٍ مِنَ النَّبْلِ صَائِبِ**

فَنَادَى أَخَاهُ ثُمَّ طَارَ بِشَفْرَةٍ ∴ إِلَيْهِ اجْتِزَارَ الفَعْفَعِيِّ المُنَاهِبِ**

و المطّلع على القصيدة كلّها سيجد وصفا دقيقا لتحايل الصّياد للحصول على الوعل، كما سيجد وصفا للعقبان و ما بوكرها من لحوم الحيوانات و الطّيور، و للإشارة لقد نسبت هذه القصيدة في الكثير من الكتب إلى أبي ذؤيب ، و على أيّة حال فهي تجسّد اهتمام هذيل بالصّيد.[81]

و اشتيار العسل يعدّ أهمّ مصادر رزق هذيل، وتعليل ذلك كثرة ما في هذه المنطقة من جبال عالية تجذب إليها النحل لما فيها من موارد ماء تنبت على حوافها ألوان مختلفة من

---

[79] شعر الهذليين : ص85.

* صخر الغي : هو صخر بن عبد الله الخثعمي ، يسمى بصخر الغي لخلاعته و كثرة شرّه.

[80] شرح أشعار الهذليين : 245/1-250.

** المنا : القدر، الجدث : القبر ، يوزى : يسوّى، و ينظر شرح الديوان : 245/1.

** المفتوق من النبل : هو السهم الواسع النصل.

** شفرة : سكين، اجتزار : يقال اجتزار أي قطع، الفعفعي : الخفيف، المناهب : المبادر ، ينظر الشرح : 250/1.

[81] أبو ذؤيب الهذلي : ص129.

الأزهار، فمن الطبيعي إذن أن ترتبط حياة بعض هذيل بهذه الناحية، و يتعرّضون من أجلها لأنواع شتى من المشقّة.[82]

و على كلّ لا ينبغي أن نغفل ظاهرة أخرى التصقت دوما بالبدوي بل و امتزجت بدمه و اعتبرها وسيلة للظّفر بالرزق، و ماذا تكون هذه الوسيلة غير الغزو؟

و مجمل القول : إنّ قبيلة هذيل لم تترك شيئا في الحياة إلاّ ومارسته، إذ كانت تلائم بين ما تريده و بين ما هو كائن، فإن كان رعي رعت، و إن كانت تجارة تاجرت، لكنها سارت على نهج سائر الأعراب فاحتقرت الصناعة و الحرف.[83]

5- ظاهرة الذؤبان في مجتمع هذيل :**

كنّا في حديثنا عن سعي هذيل لطلب الرزق تطرّقنا لغزو مشروع تخطّط له القبيلة وتجمع عليه، و لكن بالمقابل هناك غزو تراه القبيلة غير مشروع، غزو يشنّه أفراد طبقة شذّت عن المجتمع، و أبت أن ترضخ للعسر و الضّيق الّذي يفتك بها، و من يكون هؤلاء الأفراد غير الصعاليك أو ما اصطلح على تسميتهم بالذؤبان، فمن هم ذؤبان هذيل؟ و ما هي ظروف حياتهم ؟

أ- ذؤبان هذيل :

هذيل ككلّ القبائل العربية خرج منها لصوص و صعاليك تحدّث عنهم التاريخ، لكن الملفت للنظر أنّ صعاليك هذيل عرفوا بالعدّائين، ذلك لأنهم كانوا يسابقون الخيل.[84]

و في الحقيقة أفراد هذه الطبقة المتمردة ما هم إلاّ فقراء أنهكتهم الحياة فاختاروا لأنفسهم أسلوبا خاصا بهم، إذ كان يجمعهم إحساس واحد هو أنّهم مظلمون في الحياة، وكان عليهم رفع هذا الظلم بسواعدهم و رماحهم، على أنّ هذه الطبقة الفقيرة يمكن تقسيمها إلى قسمين : صعاليك وجدوا الحل في خدمة السادة و الأغنياء أو انتظار ما تأتي به الأيّام، و صعاليك أبت نفوسهم هذا الحلّ، فواجهوا القبائل بعدوانهم و غزوهم الّذي خلق

---

[82] شعر الهذليين : ص86.

[83] فجر الإسلام لأحمد أمين، دار الكتاب العربي ، بيروت-لبنان- ط1، د.ت : ص08.

** الذؤبان : من ذئب: ذأبا : صار كالذّئب خبثا و دهاءا ، و ذؤبان العرب هم صعاليك العرب أي فقراء العرب المتمردون .

[84] أبو ذؤيب : ص66.

صراعا مستديما جعل عشائرهم تخلعهم و تتبرأ منهم على الملإ، فهاموا علـــى وجوههـــم في صحراء مقفرة.[85]

فالمجتمع يحاربهم و الطبيعة تحاربهم، فهل يستسلمون للموت؟ و لنتمعّن في قول أبـــي خراش : [86]

أَرُدُّ شُجَاعَ البَطْنِ قَـــدْ تَعْلَمِينَه ∴ وَ أُوثِرُ غَيْرِي مِنْ عِيَالِكِ بِالطُّعْمِ **

مَخَافَةَ أَنْ أَحْيَا بِـــرَغْمٍ وَ ذِلَّـــةٍ ∴ وَ لَلْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ عَلَى رَغْمِ

فهو فقير، لكنه لا يريد أن يكون ذليلا ، و هو يؤثر الموت على حياة تأتيه بالهوان، ولا عليه إن شذّ و وقف الكلّ ضدّه. و كتب الأخبار حافلة بقصص أولئك الذؤبان و غـــاراتهم على القبائل المجاورة، إذ يخبرنا أبو الفرج أنّ صخر الغيّ كان يغير على خزاعة حتّى قتلته، كما كان عمرو ذو كلب* ، يغزو فهما باستمرار إلى أن تمكنت من قتله[87] إضافة إلى غزوات أبي خراش و أخويه أبي الأسود و عروة لها.[88]

ب- أسلوب حياة الذؤبان :

قسوة البيئة جعلت أولئك الفقراء لصوصا محترفين، لا يجدون ما يأكلونـــه إلاّ بمشـــقة بالغة، يرون في الوقت نفسه ناسا منعّمين، يذوقون من الحياة فنونا، و يعرفون مـــن العيـــش ألوانا لذيذة، فراعهم ذلك الفرق الهائل ووصل بهم الأمر إلى حسد أولئك المنعمين و الترصد بثرواتهم.[89]

[85] شعر الهذليين : ص88.

[86] ديوان الهذليين : 128/2.

** الشجاع : يقصد به الجوع، لأن المثل يقول : الجوع يتلظّى في جوفي كما يتلظّى الشجاع، الطعم : الطعام، الرغم: الهـــوان، ينظـــر الديـــوان : 128/2.

* عمرو ذو كلب : هو عمرو بن العجلان بن عامر بن برد بن منبّه، وهو أحد بني كاهل و يقال له ذو كلب لأنه كان معه كلب لا يفارقه.

[87] الأغاني : 21/20-22.

[88] المصدر نفسه : 42/21.

[89] شعر الهذليين : ص 104-108.

أما الأسلوب الّذي كان يسلكه أفراد هذه الطبقة، فقد كان شاقا عنيفا يتلخّص في الغزو و استعمال القوة لنيل المآرب ، فأصبح الآمنون يخشونهم و يقدّرونهم لكن دون أن يهادنوهم أو يتركوا لهم شيئا.[90]

وقد كان الذؤبان يقصدون أماكن معينة كمكة التي كانت تشكل هدفا رئيسيا لهم، لأنهم كانوا يعلمون أنه مهما تكن ثرواتها الزراعية فإنها وافرة الغنى بأهلها الأشراف، إضافة إلى الطرق التجارية بين الطائف و الحرم، كانوا يتوزعون على الطرق مستخفين في الجبال حتى إذا اقتربت قافلة ما باغتوها، ثم أسرعوا إلى شعاب الجبال لا يقدر على إمساكهم أحد.[91] فهم يغزون ما داموا معرّضين للفقر و القحط، و ما دامت إبلهم تموت و ليس هناك أدلّ من أبيات مالك بن الحارث* الّتي تلخّص نظرة الذؤبان للحياة:[92]

فَلَسْتُ بِمُقْصِرٍ ما سَافَ مَالِي ∴ وَ لَوْ عُرِضَتْ بِلُبَّيِ الرِّمَاحُ**
وَ مَنْ تَقِلَ حَلُوبَتُهُ وَيَنْكَلْ ∴ عَنْ الأَعْدَاءِ يَغْبُقُهُ القَرَاحُ**
فَلُومُوا مَا بَدَا لَكُمْ فَإِنِّي ∴ سَأَعْتِبُكُم إِذَا انْفَسَحَ المُرَاحُ
رَأَيْتُ مَعَاشِرًا يُثْنِي عَلَيْهِمْ ∴ إِذَا شَبِعُوا وَأَوْجُهُهُمْ قِبَاحُ
يَظَلُّ المُصْرِمُونَ لَهُمْ سُجُوداً ∴ وَلَوْ لَمْ يُسْقَ عِندَهُمْ ضَيَاحُ**

فالشاعر يرى أنّ الفقر ذلّة، و القوّة هي الطريق إلى الغنى و الشرف.

و الجدير بالذّكر أن هذيل بفضل أولئك الشّذاذ حفظت مكانتها بين القبائل، فخافتها العرب و أصبحت سائر العشائر و القبائل تحسب لها ألف حساب، و من مثل قريش مالا وقوّة إلاّ أنّها كانت تحرص على ودّها و تعمل على أن يكون بينهما سلام مستديم.[93]

---

[90] شعر الهذليين : ص104.

[91] المرجع نفسه: ص108.

* مالك بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل.

[92] ديوان الهذليين : 3/81-82.

** ساف مالي : مات مالي : يريد القول : لن أتوقف عن الغزو ما دامت إبلي تموت .

** حلوبته : ما يحلب، ينكل : يجبن ، المراح : مكان يريح فيه إبله و هو يريد السخرية، بقوله : سأتوقف عن الغزو و متى أصبح لي إبل كثيرة.

** المصرمون : المقلون ، الضياح : اللبن الكثير الماء.

[93] شعر الهذليين : ص112.

ثالثا : هذيل في صدر الإسلام

مرّة أخرى وجدت نفسي أقف في مواجهة تاريخ غامض و أخبار متقطعة تحتاج إلى جزم، فمهما يجتهد الباحث في تقصّي أحوال هذيل بعد إسلامها لن يعثر على ما عساه يلقي الضوء على الطريق الّذي سارت عليه، باستثناء ما تواترت روايته من أنّ هذه القبيلة سألت الرّسول صلى الله عليه وسلم أن يحلّ لها الزّنا، لكنّ المؤرّخين لم يحدّدوا لهذه الحادثة مناسبة، والواضح أنّهم استدلوا في نقل هذا الخبر بأبيات لحسان ابن ثابت يستنكر على هذيل سؤالها إذ يقول: [94]

سَأَلَتْ هُذَيْلٌ رَسُولَ اللهِ فَاحِشَةً ∴ ضَلَّتْ هُذَيْلٌ بِمَا سَأَلَتْ و لَمْ تُصِبْ
سَأَلُوا رَسُولَهُمُ مَا لَيْسَ مُعْطِيهِمْ ∴ حَتَّى الْمَمَاتِ وَ كَانُوا سُبَّةَ الْعَرَبْ
وَلَنْ تَرَى لِهُذَيْلٍ دَاعِيًا أَبَدًا ∴ يَدْعُو لِمَكْرُمَةٍ عَنْ مَنْزِلِ الحَرَبْ
لَقَدْ أَرَادُوا خِلَالَ الْفَحْشِ وَيْحَهُمُ ∴ وَ أَنْ يُحِلُّوا حَرَامًا مَا كَانَ فِي الْكُتُبْ

1- هذيل بعد البعثة :

أ- في خلافة أبي بكر الصديق :

بمجرد وفاة الرّسول صلى الله عليه وسلم و وقوع الردة في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، انشغل المؤرخون عن أخبار هذيل، فلم يأتوا بجديد إذ لم يحدّثونا عن هذيل المرتدّة و لا عن هذيل الّتي تمسّكت بحبل الله، و سبب ذلك - في اعتقادي- هو تفرق عشائر هذيل و انضواء أفرادها تحت لواء الدولة الإسلامية لكن مع هذا يبقى أن نتساءل هل شاركت هذيل عمليا في بناء الدولة الإسلامية ؟

واضح مما جاء في شعر هذيل أنّ عشائرها تشتّتت، و هاجرت تاركة مهدها الأول بغرض الغزو، إذ انضم أفرادها إلى الجيوش الإسلامية، وشاركت بعض عشائرها جيرانها الغزو ككنانة و هوزان و ثقيف و سليم و غيرها، و على أيّة حال خلافة أبي بكر رضي الله عنه كانت قصيرة، و بالتالي لم يكن فيها شيء، يثير من أخبار هذيل.[95]

---

[94] ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، دار صادر ، بيروت، ط1، عام 1974م: 443/1.

[95] شعر الهذليين : ص64.

ب- في خلافة عمر بن الخطاب :

بنهوض عمر بن الخطاب - رضي الله عنه- بأمور المسلمين انتهج سياسة الفتح، فشجّع قبائل العرب على الغزو، و دفعها إلى ملك الروم و الفرس، و يبدو أنّ مثل هذه الحروب أفنت الكثير من أبناء هذيل، ففي أخبارهم جاء أنّ ابن الشاعر أبو خراش غزا مع المسلمين فأوغل في أرض العدو، فقدم أبو خراش المدينة و شكا للخليفة عمر شوقه إلى ابنه وحاجته إليه و تعلّقه به، بعد أن قتل إخوته و انقرض كلّ أهله و لم يعد له من معين و أنشأ يقول : [96]

أَلاَ مَنْ مُبْلِغُ عَنِّي خِراشًا ∴ وَقَدْ يَأْتِيكَ بِالنَّبإِ البَعِيدُ
أَلاَ فَاعْلَمْ خِرَاشُ بِأَنَّ خَيْرَ الـ ∴ ـمُهَاجِرِ بَعْدَ هِجْرَتِهِ زَهِيدُ**

فردّ إليه عمر بن الخطّاب ابنه و أمر أن لا يغزو من له أب عجوز إلاّ بعد أن يأذن له.[97]

و الواقع أنّ عهد عمر بن الخطاب شهد الحركة الكبرى لارتحال عشائر هذيل إلى خارج الحجاز[98]، إذ تواترت أخبار بعض الأفراد و الجماعات في حوادث و قصص ارتبطت من حيث الزمن - بخلافة عمر رضي الله عنه.

ج- في خلافة عثمان بن عفان :

يبدو أن هذيلا لم تكن راضية تماما عن عثمان بن عفان، إذ كانت تعيب عليه - رضي الله عنه - لينه، ذلك لأنّها كانت تنتصر للصحابي عبد الله بن مسعود الّذي نشأت بينه و بين الخليفة خصومة كما روت بعض الأخبار .[99]

فقد كان ابن مسعود أثيرا لدى الهذليين و العرب كلّهم، وقد كان أهل الكوفة ** مولعين به و مخلصين له. يجدون دائما في علمه و أدبه و صدقه و عدله ما يملؤهم طمأنينة وأمنا.[100]

---

[96] ديوان الهذليين : 2/170-171.

** يريد القول : إذا هاجر و ذهب فإنّ خيره قليل و هو زهيد.

[97] الأغاني : 21/250.

[98] شعر الهذليين : ص62.

[99] المرجع نفسه : ص 66.

** جاء في الأثر أن عمر بن الخطاب بعث عمار بن ياسر على صلاة الكوفة و عبد الله بن مسعود على قضائها و بيت مالها.

[100] تاريخ الطبري : 3/2842.

و كان عثمان بن عفان قد أقرّ بن مسعود على عمله -كمسؤول عن بيت مال المسلمين- إلى أن ولي الكوفة الوليد بن عقبة الذي سار على سياسة لم يرض عنها بن مسعود، فوقف معارضا للوالي و الخليفة معا، و اشتد الخلاف بين عثمان و ابن مسعود -رضي الله عنهما- و في موجة من الغضب العارم طرد الخليفة ابن مسعود من مسجد المدينة مما أثار هذيلا و جعلها تحتجّ على الخليفة بشدّة.[101]

د- في خلافة علي بن أبي طالب :

بعد الأحداث التي عاشتها هذيل في خلافة عثمان بن عفان استكانت و آثرت الهدوء في هذه الفترة، و أبت على نفسها أن تشاطر الناس ما يضطربون فيه[102] . فظهور هذيل لم يكن واضحا لكنها رغم ذلك عايشت ككلّ العرب الصراع بين علي رضي الله عنه ومعاوية بن أبي سفيان.

2- هذيل بعد انتشار الإسلام :

بعد كلّ ما تقدّم يمكن القول أنّه ليس سهلا تحديد موقف لهذيل، إذ لم أعثر على ما يرسم لي طريقها أثناء خلافة الأمويين، باستثناء ما نقل من أخبار عن شعرائها الموالين للأمويين كأبي صخر الذي جادت قريحته بمدائح في عبد الملك بن مروان ، و أمية ابن أبي عائذ الذي أخلص بدوره للأمويين و أصبح شاعرهم.[103]

و مجمل القول أنّه بامتداد سنين الدولة الإسلامية أصبح لهذيل شأن عظيم، إذ تغيرت صورتها في أذهان الناس فأصبح لها تراث شعري ضخم يتحدّثون به، و أبناء مبرزون يملؤون الحياة أمثال أبي بكر الهذلي الخطيب القاص، و مسلم بن جندب الهذلي إمام مسجد الرسول صلّى الله عليه وسلم بالمدينة و الذي قال فيه الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز : "من سرّه أن يسمع القرآن غضّا فليسمع قراءة مسلم بن جندب"[104].

---

[101] شعر الهذليين : ص67.

[102] المرجع نفسه: ص 68.

[103] الأغاني : 23/163-168.

[104] البيان و التبيين لأبي عثمان بن بحر الجاحظ، دار الفكر للجميع، ط1، عام 1968م: 2/10.

وقد يتساءل القارئ عن سبب وقوفي في سرد أخبار هذيل عند الأمويين، و الحقيقة أنّ تاريخ هذيل لم يقف عند هذا الحدّ، لكن يعلم الله ما عانيت من مشقّة بغية جمع أخبار هذه القبيلة لرسم صورة عامة عنها في الجاهلية و الإسلام، لذلك كلّه اخترت الوقوف هنا مخافة الوقوع في تطويل ممل لن ينفع البحث في شيء.

الفصل الثاني

الفضاءات اللّغوية و الفنيّة في شعر الهذليين

أولا : خصوصية لهجة هذيل

1- تمهيد

2- لهجة هذيل بين اللغويين و النحويين

أ- المستوى الصوتي و الصرفي

ب- المستوى النحوي

ج- المستوى الدلالي

ثانيا : الخصائص الفنية في شعر هذيل

1- بناء القصيدة

2- خصائص موضوعية

ثالثا : صور البيان في شعر هذيل

- التشبيه في شعر هذيل

أولا: خصوصية لهجة هذيل

1- تمهيد :

يقول الأستاذ نجيب محفوظ محمد البهبيتي : "اللغة ترجمان الحياة و صورتها الأمينة ، وهي دائما أسماء للموجودات في حياة أهلها"[1]، انطلاقا من هذه الرؤية يمكن الجزم بأنّ اللّغة العربية قد عايشت هذه الحضارة بامتدادها ، و عبّرت عن هذا التنوع المنتشر في تكوينات هذا الوطن الفسيح، فلكلّ موجود لفظ يوازيه، كلّ أنواع الأرض سهلها و جبلها، ذراها وقممها، و كل أنواع الصخور و ضروب المراعي و السهوب و كل الأشجار و الثمار ...

من أجل ذلك كله صحّ أن يقال أن العربية الفصحى أدقّ لغة بناها الإنسان على ظهر هذه الأرض[2] .

و مما ينتشر بين الدارسين للغة تلك الرؤية التاريخية التي تساهم في استقصاء التطورات و التغيرات التي كانت تعتري العناصر اللغوية في لغة ما ، فقد أتاحت لهم هذه المقارنة بين الشواهد التي عثروا عليها في أحقاب متباينة أن يعرفوا مسار كل لفظ و ما اعتراه من اشتقاق و تحوّل.[3]

وقد اجتمعت اللهجات العربية لتخرج للوجود اللغة الفصحى التي نعرفها الآن، فكلّ لهجة في اعتقادي تمثل حقبة زمنية عاشتها اللغة العربية ، و لعل أقدم هذه اللهجات وأعرقها: "لهجة هذيل".

2- لهجة هذيل بين اللغويين و النحويين :

لقد كانت للهجة هذيل مكانة رفيعة في نفوس الرواة و اللّغويين و النّحويّين، إذ اتّخذوها عونا على ضبط اللغة و تدوين خصائصها، هم بذلك أطلعونا على ما اختلفت فيه لغة هذيل عن اللغات الأخرى.

---

[1] الشعر العربي في محيطه التاريخي القديم لنجيب محمد البهبيتي ، دار الثقافة للنشر و التوزيع ، الدار البيضاء ، ط1، د.ت : ص510.

[2] المرجع نفسه : ص 513-514.

[3] التحولات الجديدة للسانيات التاريخية للدكتور مرتاض عبد الجليل ، مطبعة دار هومة ، ط1، 2001م: ص08.

يرى الكثير من الباحثين أنّ النحاة حين حدّدوا قبائل الفصاحة و جعلوا لهجاتهم مصادر في النحو العربي لم يقصروا الأخذ عن قريش ، و إنما سمعوا مما عداها من قبائل الحجاز و نجد مركزين اهتمامهم على سكان البراري ممن كانوا أشدّ توحّشا و جفاء و هم : قيس وتميم و طيئ ثم هذيل.[4]

و بالنظر إلى آراء هؤلاء العلماء على تباينها ظل شعر هذيل على مرّ الزمن جعبة شواهد اللغة و ملتقى الدارسين و الحفاظ، لما جسّده من خصائص عامة للهجة هذه القبيلة فقد حاولت أن ألتمس صفات لهجة هذيل مستعينة بتراثها الضخم و بعض ما قيل حولها في كتب اللغة إذ عملت على تصنيف كل ما وصلت إليه من صفات و مميزات ضمن المستويات التالية :

أ- المستوى الصوتي و الصرّفي:

ويتعلق هذا المجال -كما هو معلوم- بدراسة هيكل اللفظ نسجه و صورته، و ما يطرأ على حروفه من إبدال و تصحيح و بناء و ما إلى ذلك. و من بين الظواهر التي رصدتها لنا كتب اللغة تلك التي تتعلق بالإبدال و القلب منها :

***الفحفحة :**

ويقصد بها قلب الحاء عينا مطلقا سواء كان حاء "حتى" أو غيرها، و نسبها صاحب "البحر المحيط" إلى هذيل، حيث تقول العرب في مثل : حلت الحياة لكل حيّ ، علت الحياة لكلّ عيّ[5]، فعلى هذا النحو قرأ ابن مسعود قوله تعالى : ﴿**لَيَسْجُنُنَّهُ عَتَّى حِينٍ**﴾[6]، فكتب إليه عمر بن الخطاب : "أنّ الله أنزل هذا القرآن عربيا، و أنزله بلغة قريش فلا تقرؤهم بلغة هذيل"[7] كما جاء في كلام العرب أيضا جلست عنده عتى اللّيل.

---

[4] اللهجات العربية : نشأة و تطورا ، لعبد الغفار حامد هلال، دار الفكر العربي ، القاهرة، ط1، 1998م، ص66.

[5] المرجع نفسه : ص123.

[6] الآية 35 من سورة يوسف.

[7] البحر المحيط تأليف : أثير الدين أبي عبد الله محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي الغرناطي الجياني الشهير بأبي حيان التوحيدي، مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر ، ط1، 1328هـ: 307/5.

ويرى بعض علماء اللغة أن الفحفحة خاصة بحاء "حتى" فقط، غير أنّ الدكتور عبد الغفار حامد هلال يورد آراء إبراهيم أنيس بحجّة أنّ هذه الظاهرة لم تقتصر علي اللّعمّ الأعمر في اللّحم الأحمر. ويواصل الدكتور عبد الغفار سرد هذه الآراء و مناقشتها و نقد بعضها من حين إلى آخر إلى أن يخلص إلى القول بضعف هذه الشواهد و ضعف نقلها أيضا، إذ يقول بهذا الصّدد : ".. و هذا النّقل ضعيف لأنه لم يرد لنا من نصوص العرب وشواهدهم ما يجعلنا نقبل وجهتهم، و مع هذا فقد رأينا ابن مسعود قد اقتصر على إبدال الحاء من "حتى" و لم يبدلها من حين"[8].

لكن مع هذا يجب أن نعرف أن ظاهرة قلب الحاء عينا ثابتة و إن لم تدخل ضمن ما يعرف بالفحفحة ، وذلك لورودها في أمثلة لغوية تضمنتها المعاجم مثل : بعثر و بحثر[9].

و مجمل القول إن وجود هذه الظّاهرة في مصحف ابن مسعود دليل على نسبتها إلى بعض بطون هذيل، لأنّني لم ألتمس "عتّى" في أيّ بيت شعري.

* **الإستنطاء :**

وهو جعل العين الساكنة نونا إذا جاورت الطاء، فأعطى يقال فيها : أنطى[10] و منه القراءة المروية عن الرسول صلى الله عليه و سلّم : ﴿إنّ أنطيناك الكوثر﴾ ، وقد عزا اللغويون هذه الظاهرة إلى بعض القبائل التي كانت تنطق صوت العين بصفة خاصة نطقا أنفميا * لكن يبقى هذا الرأي ضعيفا من وجهة نظر اللغويين المحدثين.[11]

و المهمّ لدينا أن كلا من السيوطي و الزبيدي نسب الإستنطاء لسعد بن بكر وهذيل و الأزد وقيس و الأنصار.[12]

---

[8] اللهجات العربية : نشأة و تطورا، ص123.

[9] المزهر في علوم اللغة و أنواعها للعلامة جلال الدين سيوطي شرح و تعليق : محمد جاد المولى بك، محمد أبو الفضل إبراهيم علي محمد النجار : 422/1.

[10] المصدر نفسه : 22/1، و ينظر في لسان العرب : (نطا).

* ويكون ذلك بأن تجعل مجرى النفس معه من الفم و الأنف مع فتسمع العين ممتزجة بصوت النون، و ليست في الحقيقة نونا بل هي (عين) .

[11] اللهجات العربية : نشأة و تطورا، ص132-133.

[12] المزهر : 109/1، و ينظر مقدمة تاج العروس من جواهر القاموس لمحمد مرتضى الزبيدي ، المطبعة الخيرية ، مصر ، ط1، 1306هـ: 08/1.

و رغم ما أثبته الزبيدي و السيوطي من شواهد حول هذه الظاهرة يبقى قليلا ذلك أنني و مرة أخرى لم أجد أيّ أثر للإستنطاء على مدار دراستي لديوان هذيل و لا حتى شرح الديوان، مما يجعلني آخذ برأي الدكتور أحمد كمال زكي حين يستبعد هذه الظاهرة عن لهجة هذيل ، حيث يقول : "نستطيع أن نبعد الإستنطاء عن هذيل، و نجعله لقبائل اليمن فقط. وإذا صحّ ما قيل أنّ هذيلا كانت ممن تأخذ به فلا يبعد أن يكون ممن يعنى به رهط صغير منها جاور اليمن، أو تكون هذيل اليمن، فقد كانت ثمّة قبيلة يمنية تحمل هذا الاسم"[13].

*النّبر :

و المراد به الهمز، فقد كانت قبائل العرب يتأثر بعضها ببعض في الهمز و التسهيل.[14]

و المشهور في النطق العربي أن الهمز من الخصائص البدوية لأنه صوت حنجري يناسب هذه البيئة.[15]

و مما يدلّ على مناسبة الهمز للبدو ما جاء على لسان ابن جني في الخصائص : "إنّ بعض من تقوى لغته و يتعالى تمكينه و جهارته دون أن يطفي به طبعه و يتخلى به اعتماده... يبذل من الألف همزة.. فيقول شأبة ، دأبة ..."[16].

وقد أثر عن هذيل إبدال الهمزة من حروف العلة، و هذه الظاهرة لها عدة صور منها ما يكون واجبا و منها ما يكون جائزا و منها ما يعد شاذا، إذ تبدل الهمزة وجوبا على لغة هذيل – في حمراء ، و ما عباءة ، عظاءة... فعظاءة لغة في عظاية.[17] و نسب صاحب "البحر" إلى هذيل قولهم في "(وعاء) إعاء عند تفسيره قوله تعالى : ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾[18] و من ذلك قولهم إشاح وإسادة في وشاح وسادة[19] على أنني لم أقرأ في

[13] شعر الهذليين : ص302.

[14] اللهجات العربية : نشأة و تطورا، ص30.

[15] القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث للدكتور عبد الصبور شاهين ، مكتبة الخانجي ، القاهرة، ط1، د.ت، ص30.

[16] الخصائص : 207/3، و ينظر : اللسان 14/1 مادة دأب.

[17] اللهجات العربية : نشأة و تطورا، ص158-159.

[18] الآية 76 من سورة يوسف

[19] البحر المحيط : 331/5-332.

شعرهم "إشاح" و "لا إساءة" إلاّ أنني وجدت ما نسج على منوالهما في قول مالك بن خالد الخناعي "[20]:

إِلْدِكَ أَصْحَابِي فَلاَ تَزْدَهِيهِمُ ∴ بِسَايَةٍ إِذَا مدَّتْ عَلَيْكَ الحَلاَئِبُ**

و إلدك لغة في "ولدك" و هو يريد القول : لا تحتقروا أصحابي فإنهم إذا جاء النّاس وكثروا دفعوا عني . وهو ما ذهب إليه المعطل في قوله : [21]

لَهُ إِلْدَةٌ سُفْعُ الوُجُوهِ كَأَنَّهُمْ ∴ يَصْفُقُهُمْ وَعْكٌ مِنَ المُومِ مَاهِنُ

يريد أن هؤلاء الأولاد مصاحبون بالهزال و الحمى، ذلك أن السّفع يقصد به الحمرة الشديدة و يصفّقهم : يقلّبهم، و الوعك : الحمّى و من ذلك قول الأعلم [22]

هواء مثل بعلك مستميت ∴ على ما في إعائك كالخيال

شرح السكري هذا البيت بقوله : هواء : هو منخوب الفؤاد لا عقل له (أي الفارغ)، أي يموت على الزاد من البخل وهو يريد بذلك أن جوفه خال ليس فيه شيء.[23]

و في موضع آخر من كتاب القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث ، وقفت على رأي آخر أدهشني ، يقول فيه الدكتور عبد الصبور شاهين : "... وقد ورد النص في كلام أبي زيد الأنصاري أن أهل الحجاز ، و هذيل، و أهل مكة و المدينة لا ينبرون"[24]. أي يؤثرون التسهيل على التحقيق.

و من المؤكد أنّ عبد الصبور شاهين كان يقصد القبائل الحضرية ، فهو يعلل تخفيف الهمز بقوله أنه لم يكن مقصورا على منطقة دون أخرى و إنما كان منتشرا في كثير من المناطق العربية دون أخرى مؤكدا أنّه من خصائص نطق القبائل الحضرية.[25]

---

[20] ديوان الهذليين : 09/03.

** الحلائب : الجماعات .

[21] هو أحد بني رهم بن سعد بن هذيل . ينظر في ديوان الهذليين : 49/3 .

[22] الأعلم : اسمه حبيب بن عبد الله و هو أخ لصخر الغي الهذلي . و البيت موجود بالديوان :83/2.

[23] شرح ديوان الهذليين : 319/1.

[24] القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث ، ص84.

[25] المرجع نفسه : ص85.

و هذيل كما هو معلوم حضر و بدو، و على هذا الأساس فتحقيق الهمز اختص بـــه أهل البادية من هذيل- المنتشرين على سفوح الجبال و أطراف الوديان، بينما التسهيل اختص به اهل الحضر ممن عاشوا بقرب المدن كمكة ، المدينة و الطائف.

و مما أثر عن هذيل أيضا إبدالها آخر الفعل المعتل كقولهم : أتا، يـــأتو أتونـــي أتـــى يأتي، على نحو ما جاء في أبيات خالد بن زهير التي قالها في أبي ذؤيب الهذلي[26]:

يَا قَومِ مَا بَالُ أَبِي ذُؤيبٍ ∴ كُنْتُ إِذَا أَتَوْتُهُ مِنْ غَيْبِ

يَشُمُّ عِطْفِي وَ يَمَسُّ ثَوْبِي ∴ كَأَنَّنِي قَدْ ربْـــتُهُ بِرِيْبِ

*** التصحيح و الإذلال :**

أما التصحيح فيقصد به إبقاء حرف العلة على حاله و عدم التعرّض له بتغيير ما، بينما نستطيع في الإعلال تغيير حروف العلة بالقلب و الحذف أو الإسكان .

روي عن هذيل تحريك الواو و الياء ، في مثل : جوزات، بيضات . و وجه الخـــلاف هنا أن كل اسم على وزن فَعْلَه (جَوْزَه) يجمع على وزن فعلات بإسكان العين (جَـــوْزَاتْ) ، لكن هذيل كانت تحرّك حرف العلة تبعا لفاء الكلمة (جَوَازَاتْ)، و هي بذلك تعامل المعتـــل معاملة الصحيح.[27]

وقد ساق صاحب "البحر المحيط" عدة شواهد حول الظاهرة من ذلك قول الله تعالى : ﴿أَوْ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾[28] . بسكون الواو و ذلـــك لأنّ أكثر العرب لا يحركون الواو و الياء في مثل هذا الجمع، غير أن تحريك الواو و الياء أمر سهل في كتب النحو و انتشر في نظائر هذا الجمع على لغة هذيل ابن مدركة.[29]

كما استدل أبو حيان برأي للفراء؛ مفاده أنّ العرب على تخفيف ذلك إلاّ هذيل، تثقل ما كان من هذا النوع من ذوات الياء و الواو على نحو ما جاء في شعرهم : [30]

أَخُو بَيْضَاتٍ رَائِحٌ مُتَأَوِّبُ ∴ رَفِيقَ بِمَـــسْحِ المِنْكَبَيْنِ

---

[26] ديوان الهذليين : 165/1.

[27] شعر الهذليين : ص303.

[28] الآية 31 من سورة النور.

[29] البحر المحيط : 49/6.

[30] المرجع نفسه: 49/6.

و يرى الدكتور أحمد علم الدين الجندي أنّ هذه الظاهرة ليست قريبة مما عرف عن تميم من حذف للحركات القصيرة، لذلك فهي أجدر بهذيل الذي اشتهرت بالإنحرافات اللهجية، و الصيغ الغريبة، و من جهة أخرى كان على هذيل أن تعلّ هذه الصيغة (عورات-بيضات) لأنّ الواو و الياء تحركتا و انفتح ما قبلها فتقلب الواو و الياء إلى ألف لتصبح : عارات و باضات ، لكن هذيلا - حسب علم الدين الجندي - وقف التطور فيها فصحّحتها، و بالتالي لم ياخذ التطور دورته الكاملة حتى تصير: عارات ، و باضات....[31]

الشائع عند العرب بقاء الألف المقصورة على حالها عند إضافتها لياء المتكلم على نحو: عصاي و فتاي و هواي، لكن إذا سبقت هذه الياء بأحد حروف العلة فإنّهم يدغمون الألف في الياء. كما هو الحال في حروف الجرّ و بعض الظروف مثل : إليّ، عليّ و لديّ.[32] لكنّ هذيلا انفردت في السير في طريق آخر ؛ إذ تقلب الألف ياء ثم تدغمها في الحالتين فتقول : عَصَيَّ، فتيّ [33] على نحو ما جاء في قول أبي ذؤيب[34]:

سَبَقُوا هَوِيَّ وَ أَعْنَقُوا لِهَوَاهُم .: فَتُخُرِّمُوا وَ لُكِلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ

و لقد عزيت هذه الظاهرة لطيء أيضا، بدليل كا جاء في "اللسان" من حديث رجل يدعى طلحة:"فوضعوا اللّجّ على قفيّ..." [35]أي وضعوا السيف على قفاي ، ورغم ما جاء في هذه الرواية حسبنا أن هذه الظاهرة عزيت في كتب علوم القرآن لهذيل، فهذا أ بو حيان يورد قراءة بن أبي إسحاق لقوله تعالى :﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَيَّ﴾[36].

كما أورد قراءة أخرى لقوله تعالى : ﴿قال يا بشريّ[37]﴾.[38]

---

[31] اللهجات العربية في التراث للدكتور : أحمد علم الدين الجندي ، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، ط1، 1978، 544/1.

[32] شعر الهذليين : ص304.

[33] اللهجات العربية في التراث : 539/2.

[34] ديوان الهذليين : 02/1.

[35] لسان العرب : 55/20.

[36] الآية 162 من سورة الأنعام.

[37] الآية 19 من سورة يوسف .

[38] البحر المحيط : 290/5.

*الحذف :

معلوم أنّ القبائل البدوية كانت تؤثر السرعة في نطقها ، و تلتمس لأجل ذلك أيسر السبل فتجدها تدغم بعض الأصوات ببعض ، و تسقط منها ما يمكن الإستغناء عنه دون إخلال بالمعنى ، و من بين هذه القبائل تميم و هذيل و بني حثعم و غيرها .[39]

و هذيل كانت تحذف النون من "من" على طريقة البدو بغرض الإقتصاد في الجهد العضلي و الإسراع في النطق على نحو ما جاء في بيت أبي صخر الهذلي* :[40]

كَـأَنَّهُمَا مِالآنَ لَمْ يَتَغَيَّرَا ∴ وَقَدْ مَرَّ بِالدَّارَيْنِ مِنْ بَعْدِنَا عَصْرُ

و الصواب "من الآن".

و من الاستعمالات الغريبة لهذيل ، إبدالها لبعض الحروف بأخرى مفخّمة، و هي ميزة خاصة بالقبائل البدوية على حدّ تعبير الدكتور علم الدين الجندي، فالتفخيم له رنّة قوية تلائم طبيعة البدوي و خشونته.[41] و من ذلك بيت ساعدة بن جؤية الهذلي الذي جاء في "اللّسان"[42]:

بِأَصْدَقَ بَأْسٍ مِن خَلِيلٍ ثَمِينَةٍ ∴ وَ أَمْضَى إِذَا مَا أَفْلَطَ القَائِمُ اليَدَ

أراد : أفلت القائم اليد ، و مثل هذه اللغة وصفها ابن منظور بالتميمة القبيحة، و بيت بن جؤية لا يمكن أن نعزو ما جاء فيه من إطباق إلى ضرورة شعرية اقتضته ، لأن الميزان الشعري قائم في كلا النطقين (بالتاء- أو بالطاء).[43]

عادة في الفعل الأجوف، -وهو الماضي- المعتل الوسط، - يكسر الحرف الأول منه، و بقلب حرف علته ياء إذا بني للمجهول إذ نقول في باع بيع ، لكن بعض هذيل كانوا يشاركون أسدا و بني دبير و غيرهما... في قولهم بُوعَ: بقلب الألف واوا.[44]

---

[39] اللهجات العربية في التراث : 92/1-93.

* اسمه الحقيق : عبد الله بن سلم أحد بني مرمض ، و هو شاعر إسلامي، عاصر الدولة الأموية، وله في عبد الملك بن مروان مدائح كثيرة .

[40] شرح ديوان الهذليين : 256/2.

[41] اللهجات العربية في التراث : 93/1-94.

[42] لسان العرب : 372/7، لم أجد أثرا لهذا البيت في الديوان و لا في شرح الديوان.

[43] اللهجات العربية في التراث : 94/1.

[44] شعر الهذليين : ص305.

ب- المستوى النّحوي :

في الحقيقة إنّ اهتمام النحويين بلغة هذيل كان دون اهتمام اللغويين، لكن هذا لا يعني إهمالهم التام لها، فقد كلفتهم العناية بكلام هؤلاء العرب متابعة دقيقة لكلّ ما كانوا ينطقون به، من أجل ذلك كله وجد لهذيل المطّرد من الكلام كما وجد لها المنحرف الشاذ.

ولقد ضمّت كتب النحو شواهد متفرقة لهذيل، رأيت أن لا أحشدها كلها مخافة الوقوع في تطويل ممل، لذلك ركزت على بعض المسائل لا سيما تلك التي جاء ذكرها بكتاب "الإنصاف في مسائل الإخلاف" للأنباري.

***بعض وجوه الإعراب :**

معروف أن "نِعم" -بكسر النون - إذا جاءت مقترنة بـ "ما" فإن العين بعدها تكون ساكنة، غير أن الكثير من اللغويين وقفوا عند قوله تعالى : ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾[45] إذ قرأ بعضهم فنعِم بكسر النون و العين، فقد ذكر ابن كثير إن كلا من ورش وحفص قرأوا (نعما) على لغة من يحرّك العين و يتبع النون بحركتها و هذه لغة هذيل : [46]

كذلك قرأت هذيل "نجد" بضمتين متعاقبتين (نُجُد) من ذلك ما جاء في قول أبي ذؤيب : [47]

فِي عَانَةٍ بِجَنُوبِ السِّيِّ مَشْرَبُهَا ∴ غُورٌ وَمَصْدَرُهَا عن مَائِهَا نُجُد

وهو يريد القول : أنّ هذه الدواب ترعى بنجد و تشرب بتهامة .

لقد ثبت أن هذيلا تقول في "يتّقي" بتشديد التاء (يتقي) بتخفيفها و فتحها فقط، و في ذلك أورد الدكتور أحمد كمال قول ساعدة بن جؤية :[48]

يَتَقِي بِهِ نَفْيَانِ كُلَّ عَشِيَّةٍ ∴ فَالْمَاءُ فَوْقَ مُتُونِهِ يَتَصَبَّبُ

---

[45] الآية 271 من سورة البقرة.

[46] البحر المحيط : 324/2.

[47] ديوان الهذليين 124/1

[48] شعر الهذليين : ص307.

كما كانت هذيل تقول في "اتخذت" "تخذت" بحذف الألف من ذلك قول أبي جندب وهو يصف إحدى مغامراته[49]:

تَخِذْتُ غَرَازَ*** إثرَهُمُ دَليلاً ∴ وَ فرّوا في الحِجَازِ ليُعْجِزُوني

*حركة المضارع في لهجة هذيل :

من المألوف في الفصحى أن يفتح حرف المضارعة على نحو تضرب، يعلم ...، لكن بعض كتب اللغة حدّثتنا بعض كتب اللغة بأنّ كسر حرف المضارعة من خصائص لهجة بعض العرب.[50]

فقد نسب أبو حيان قراءة "نِسْتَعِينُ" من الفاتحة إلى هذيل، وقد ساق على ذلك أمثلة أخرى من ذلك قولهم إِخَالُ، معلّلا بقوله أنّ هذيلا كانت مولعة بالكسر فتقول في "تَعكف"، "تِعْكِفُ".[51]

و هذيل تقول في عنّ يَعِنّ بكسر عين المضارع عَنّ يعنّ بضمّ العين، و مثلها ما جاء في قول حبيب الأعلم[52] :

كَأَنّ مَلاَءَتِي عَلَى هَزَفٍ ** ∴ يَعِنّ*** مَعَ العشيّةِ للرّئالِ **

وهو يريد القول : كأنه من شدة عدوه ظليم يظهر عند العشيّ.

و الأكيد أنّ هذه القبيلة كانت مولعة بالكسر، بدليل ما أورده السيوطي من كلام حول يِسَارُ ، فهي لغة في اليسار، قولهم : يِعَاط، لفظة هذلية يحذّر بها.[53]

---

[49] ديوان الهذليين : 90/3.

*** غراز : موضع .

[50] اللهجات العربية في التراث : 74/1.

[51] البحر المحيط : 23/1-24.

[52] ديوان الهذليين : 83/3.

** الهزف : الظّلّ .

*** يعنّ : يعرض .

** الرّئال : فراخ النعام ، ينظر شرح أشعار الهذليين : 319/1.

[53] المزهر : 151/1.

*اسم الإستفهام :

الشائع عند العرب استعمال "متى" كاسم استفهام أو اسم شرط، و لكن هذيلا تستعملها بمعنى "من" الجارّة [54].

وقد ورد مثل هذا الأمر و تكرر في أشعار هذيل من ذلك قول أبي ذؤيب [55]:

شربن بماء البحر ثمّ ترفّعت ∴ متى لجج** خضر لهنّ نئيج**

وهو يريد القول أن هذه اللجج (السحب) تروت بماء البحر ثم مرت سريعة محدثة صوتا، ثم ارتفعت [56] و يسترسل السكري في شرح هذا البيت فيقول :

"متى، في لغة هذيل، و سط الشيء ، تقول : "أخرَجتُهُ من متى كمّي"، أي من وسطه"[57].ومتى في هذه الحال تصبح ظرفا .

و هذا كله لا ينفي استعمال هذيل "متى" للإستفهام و الشرط، فقد قال مالك بن خالد الخناعي [58]:

مَتى تَنزعُوا** مِنْ بَطْنِ لَيَّةَ** تُصْبِحُوا ∴ بِقَرْنٍ لَمْ يَضْمُرْهُ لَكُمْ بَطْنُ مُحْمَرِ**

فَلاَ تَتَهَدَّدْنَا بِقَحْمِكَ ** إِنَّنَا ∴ مَتَى تَأْتِنَا نُنْزِلْكَ عَنْهُ وَ يُعْقَرِ

و الشاعر في هذين البيتين يتوعد غريما له يدعى : مالك بن عوف قائلا : لا تأتنا على فرسك المسن .

ومن خلال هذه الشواهد ، نلمس مرونة هذه الكلمة و الحدّ الّذي بلغته في لهجة هذيل.

---

[54] شعر الهذليين : ص304.

[55] ديوان الهذليين : 1/51-52.

** لجج: سحب.

** لهنّ نئيج : مرّ سريع، ويقال نأجت الريح إذا مرت و أسرعت.

[56] في الديوان راوية أخرى لهذا البيت :

تروّت بماء البحر ثمّ تنصّبت على حبشيات لهنّ نئيج

[57] شرح أشعار الهذليين 1/123.

[58] ديوان الهذليين : 3/07.

** تنزعوا : تخرجوا

** بطن لية : موضع .

** المحمر : المحين من الدواب .

** القحم : المسنّ.

*تقديم خبر المبتدأ عليه :

و في هذه المسألة بالذات أكّد البصريون أنه يجوز تقديم خبر المبتدإ مفردا كان أو جملة على المبتدإ نحو : قائم زيد، أبوه قائم زيد، و في المقابل أنكر الكوفيون ذلك بحجّة أنّ مثل هذا التقديم يؤدي إلى تقدّم ضمير الاسم على ظاهره، فاحتج البصريون بأن قالوا : "إنّما جوّزنا ذلك لأنّه جاء في كلام العرب و أشعارهم"، و دعّموا كلامهم بنصوص تتخللها ثلاث أبيات شعرية أحدها لمالك بن خالد الخناعي الهذلي و يقول فيها :

فتى ما ابن الأغرّ إذا شتونا ∴ وحبّ الزّاد في شهري قماح**

و تقديره : ابن الأغرّ فتى ما إذا شتونا [59]، و يضيف السكري في هذه المسألة أنّ "ما" زائدة فبعضهم ينشد : ما ابن الأغرّ و ينصب (ابن) على النّداء. كأنّما قيل : يا فتى ابن الأغرّ.[60]

*دخول الحذف على "ربّ":

لقد اختلف الكوفيون و البصريون حول جواز دخول الحذف على "ربّ" أو عدمه، غير أنّ ابن الأنباري يسلّم بالحذف معارضا بذلك الكوفيين بحجة أنّ الكثير من العرب قالوا في "ربّ" "ربَ" بالتخفيف [61]، و جاء ببيت أبي كبير الهذلي* الذي يقول فيه : [62]

أَزُهَيْرُ إِنْ يَشِبِ القَذَالُ** فَإِنَّنِي ∴ رُبَ هَيْضَلٍ** مَرِسٍ** لَفَفْتُ بِهَيْضَلِ

** شهرا قماح : شهران في قلب الشتاء.

[59] الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين : البصريين و الكوفيين للشيخ الإمام كمال الدين أبي البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد الأنباري النحوي، دار الجيل ، ط1، 1986م : 1/66-67.

[60] ديوان الهذليين : 05/3.

[61] الإنصاف في مسائل الخلاف : 376/1.

* أبو كبير : و هو عامر أو عويمر بن الحليس الهذلي : يقال أنه مخضرم لكن ليس ثمة ما يثبت إسلامه.

[62] ديوان الهذليين : 89/2.

** القذال : هو ما بين الأذنين و القفا.

** الهيضل : الجماعة من الناس

** المراس : ذو مراس و شدة.

و الشاعر هنا يخاطب زوجته (يا زهيرة) و يصف لها تقدمه في السن و ما اعتراه من شيب، وقد كان بالأمس محاربا شديد المراس حكيما بامورالقتال، و على كلّ فالشّاعر حذف إحدى الباءين من "ربّ".

ج- المستوى الدلالي :

إنّ عيش هذيل بإقليم جغرافي شاذ متباين المعالم و التضاريس من جبال فارعة الطول إلى وديان منبسطة فسيحة، و من منابع ضحلة كثيرة الكلأ إلى صحراء قاحلة ملتهبة، جعل مجتمعها شاذّا ، فشذت -بذلك - لغتهم، و الشّذوذ -كما يقولون - يجلب الشّذوذ ؛ فهذيل تفرّدت بألفاظ لم تعرفها القبائل الأخرى ة صيغ لا مثيل لها عند سائر العرب.[63]

و الأعرابي - على حدّ تعبير السيوطي- إذا قويت فصاحته تصرّف و ارتجل ما لم يسبق إليه[64]، و كذلك وجد لهذيل حشد هائل من الألفاظ الغريبة، فقد تطلق إحدى القبائل كلمة بمعنى ما فيكون لهذا المعنى لفظ آخر عند هذيل. و مثل هذا الأمر كثير في ديوانهم، من ذلك ما يروى أنهم يسمّون "الشّيخ" "شنْجًا"فيقولون : "شنج على عنج أي شيخ على بعير ثقيل"، و الشنج في لغة سائر العرب يعني تقبّض الجلد والأصابع و غيرهما، من ذلك مدحهم للرجل النشيط بقولهم : شنج النّسا أي متقبّضه لأن رجلاه لم تستريحا.[65]

جاء في "لسان العرب": زبر الكتاب و ذبره : كتبه و قيل نقَطه، و قيل قرأه خفية، لكنّ هذيل تجعل الزّبر للكتابة و الذّبر للقراءة .[66]

و استشهد ابن منظور ببيت صخر الغي:[67]

فِيهَا كِتَابُ ذُبِرَ لِمُقْتَرِى ** ∴ يَعْرِفُهُ أَلْبُهُم ** وَ مُنْ حَشَدُوا

---

[63] اللهجات العربية في التراث : 541/2.

[64] المزهر : 250/1.

[65] لسان العرب : 309/2-310 مادة (شنج).

[66] المصدر نفسه : 301/4 مادة (ذبر).

[67] شرح أشعار الهذليين : 256/1.

** المقترى : القارئ

** ألبهم : جماعتهم .

و "الذّبر" هنا كما شرحه السكري – يعني الكتاب بالحميرية ، إذ يقال ذبر يذبر : إذا نظر فأحسن النّظر.[68]

تقول العرب : أشاح الرّجل إشاحة، وهو مشيح أي حذر و فطن، إلاّ هذيل ذلك أنّ المشايحة –في عرفهم – تعني الجدّ و الحمل [69]، من ذلك قول أبي ذؤيب يرثي رجلا :

وَزَعْتُهُمْ** حَتَّى إِذَا تبدَّدُوا ∴ سِرَاعًا وَلَاحَتْ وُجُوهٌ وَكُشُوحُ

بَدَرْتَ إِلَى أَوْلَاهُمُ فَسَبَقْتَهُمْ ∴ وَشَايَحْتَ قَبْلَ اليَومِ إِنَّكَ شِيحُ

وهو يريد القول : تركت الأصحاب يتبدّدون و يسرعون ، ثمّ سبقتهم إلى أولى العدوّ و شايحت: أي حملت .[70]

و الضّحضاح في لغة سائر العرب تعني الماء القليل يكون في الغدير و غيره [71] و في بيت أبي ذؤيب الذي يقول فيه : [72]

يجشّ** رعدا كهدر الفحل تتبعه ∴ أدم** تعطّف حول الفحل ضحضاح

يشرح أبو سعيد الضحضاح فيقول أنها تعني في هذا البيت الإبل الكثيرة [73] وصاحب اللسان يورد هذا البيت ناقلا رأي خالد بن كلثوم الذي يقول : ضحضاح في لغة هذيل : كثير ولا يعرفها غيرهم إذ يقولون : إبل ضحضاح ، و غنم ضحضاح أي كثيرة.[74]

و يقال أنّ الزخّ –في كلام العرب – الدفع ، لكنه في لغة هذيل يعني الغضب والحقد[75].

---

[68] لسان العرب : 301/4 مادة (زبر).

[69] المصدر نفسه: 500/2 مادة (شيح).

** وزعتهم : كففتهم .

[70] ديوان الهذليين : 115/1-166.

[71] لسان العرب : 525/2 مادة (ضحح).

[72] ديوان الهذليين : 48/1.

** يجشّ : يستخرج و يستثير .

** أدم : يقصد بها الجماعة.

[73] شرح أشعار الهذليين : 167/1.

[74] لسان العرب : 525/2 مادة (ضحح)

[75] المصدر نفسه: 21/3 مادة (زخخ).

من ذلك قول صخر الغي يهجو رجلا [76]:

فَلاَ تَقْعُدَنَّ عَلَى زَخَّةٍ ∴ وُ تُضْمِر القَلْبَ وَجْدَا وخِيفَا

وهو يريد به : لا تقعدن على غيظ تضمره بقلبك ، و يشير أبو سعيد في شرحه للبيت قائلا : و لم أسمعه في كلام العرب و لا أشعارهم ، إلاّ في هذا البيت.[77]

و كذلك كان لهذيل ميزة خاصة في تسمية الحيوانات فهم يقولون للبقرة : "الحزومة"، و للأسد : "السرحان"[78] أو "السيد"[79]، على نحو ما جاء في قول حذيفة بن أنس : [80]

بَنُو الحَرْب أُرْضِعْنَا بِهَا مُقْمَطِرَّةً ∴ فَمَنْ يُلْقَ مِنَّا يُلْقَ سَيِّدَ مَدْرَبِ**

فُرَافِرَةً** أَظْفَارُهُ مِثْلَ نَابِهِ ∴ وَإِنْ يُشْوِ** نَابُ اللَّيْثِ لاَ يُشْوِ مِخْلَبِ

و الشاعر هنا يصف إقدام قومه و مواجهتهم للموت، فيشبههم بالسيّد وهو الأسد في لغتهم .

والحقيقة أنّ الوقوف على ما جاء في "لسان العرب" من ألفاظ هذيل العربية لا حدود له، فابن منظور لم يألُ جهدا في إبراز خصوصية لهجة هذه القبيلة : وهو في ذلك لم يختلف عن القالي في أماليه .

وفيما يلي عرض موجز لأهمّ الشواهد التي جاءت بكتاب الأمالي :

يرى القالي أنّ العرب استعملت الألفاظ التالية : "السمل"، "الجرد"، "السّحق"، و"النّهج" لوصف الثوب القديم ، و بالمقابل استعملت هذيل "الحشيف" على نحو ما جاء في قول شاعرهم : [81]

أُتِيحَ لَهَا أَقْيَدَر** ذُو حَشِيفٍ ∴ إِذَا سَامَتْ** عَلَى الملقَاتِ سَامَا

---

[76] ديوان الهذليين: 74/2.

[77] شرح أشعار الهذليين: 299/1.

[78] السرحان في كلام العرب هو الذّئب.

[79] لسان العرب : 482/2 مادة (سرح).

[80] ديوان الهذليين : 25/3.

** مقمطرة : الشنيعة ، يريد : أرضعنا بها و قد تهيأت للشّر.

** فرافرة :يفرفر كلّ شيء و هو يشير إلى أظافر السبع الحادة .

** المدرّب : الضّاري .

** يُشوِ : يقال أشواه إذا أصاب منه الأمر الهين ، ينظر شرح أشعار الهذليين :561/2.

[81] الأمالي في لغة العرب للغوي النحوي الشهير : أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان ، ط1، 1398هـ-1978م : 39/1، لم يذكر أبو علي اسم صاحب هذا البيت .

** أقيدر : متهيّء

** سام : مرّ .

و استعملت أيضا : "الدّريس" على نحو ما جاء في قول المتنخّل* :

قَدْ حَالَ دُونَ دَرِيسَيْهِ مَؤُوبَةٌ** ∴ نِسْعٌ** لَهَا بِعِضَاه** الأَرْضِ تَهْزِيزُ

و من صفات الثوب أيضا الأبيض الذي كانت هذيل تسميه "السّحْل"، و يقال أيضا السحْل بتسكين الحاء هو الثوب من القطن[82] ، من ذلك قول شاعر هذلي :

كَالسَّحْلِ البِيضِ جَلاَ لَونُهَا ∴ سَحٌ** بِجَاءِ الحَمْلِ الأَسْوَلِ**

يقول أبو علي : يقال : للحيّة : أيْم و أين و الأصل أيّم فخففت[83] على نحو ما أنشد لأبي كبير الهذلي[84]:

وَلَقَدْ وَرَدْتَ المَاءَ لَمْ يَشْرَبْ بِهِ ∴ بَيْنَ الرَّبِيعِ إِلَى شُهُورِ الصَّيْفِ

إِلاَّ عَوَاسِلُ** كَالمِرَاطِ مَعِيدَةٌ** ∴ بِاللَّيْلِ مَوْرِدَ أَيِّمٍ مُتَغَضِّفِ**

"الدّغاول" في لغة هذيل تعنى الدواهي و عنها يقول أبو علي: "و لم أسمع له بواحد" ثمّ يسترسل مستشهدا بقول رجل هذلي : "فقلْصي لكم ما عشتم ذو دغاول"[85] .

"الشدوف" مفردخ شدف يعني شخص كلّ شيء[86] على نحو ما جاء في قول ساعدة بن جؤية :[87]

مُوَكَّلٌ بِشُدُوفِ الصَّوْمِ** يَنْظُرُهَا ∴ مِنَ المَغَارِبِ** مَخْطُوفُ الحَشَازِرِمُ**

---

* المتنخل : اسمه الكامل : مالك بن عويمر بن عثمان بن سويد بن خنيس بن خناعة أحد بني لحيان بن هذيل ، ينظر ديوان الهذليين : 16/2

** مؤوبة : ريح جاءت مع اللّيل .

** نسع أو مسع : اسم من أسماء الشمال.

** العضاة : كلّ شجر له شوك، ينظر : ديوان الهذليين 16/2.

[82] الأمالي : 126/2.

** وسحّ : أن يسمن غاية السّمن ، و ينظر : تاج العروس : 338/1.

** الأسول : المسترخي .

[83] الأمالي : 91/2.

[84] ديوان الهذليين : 105/2.

** العواسل : يعني تعسل في مشيها ، أي تمرّ مرّا سريعا ، و إنما يريد الذّئاب .

** المراط : النبل المنزوعة الريش .

** المتغضّف : المنطو

[85] الأمالي : 147/2.

[86] جاء في اللّسان 149/9 مادة شدف : القطعة من الشيء .

[87] ديوان الهذليين : 194/1.

** الصوم : شجر يشبه الإنسان .

** المغارب : كلّ مكان يتوارى فيه .

** زرم : يقال أزرمة : إذا قطع عليه حاجة .

فالشاعر هنا يصف لنا حمار قد ورد الماء و عينه صوب الشجر خشية كمون الصياد بينها، لأجل ذلك استعمل "الشّدوف" بمعنى الشخوص.[88]

و يشير أبو علي في أماليه إلى براعة استعمال شعراء هذيل للأضداد و مهارتهم في توظيفها مستشهدا بقول أبي خراش :

يُقَرِّبُهُ النَّهْضُ النَّجِيحُ لَما يرَى .: وَمِنْهُ بَدُوٌّ مَرَّةً و مُثُولُ

يريد القول يبدو مرّة فيظهر و يتبيّن، ويمثّل أحيانا فيغيب مثول ذهاب [89] فالمثول هنا يعني الغياب و التّواري.

و في نهاية الأمر لا يمكن حصر الكم الهائل من الألفاظ الغريبة التي اختصّت بها هذيل دونا عن سائر العرب، فاللّفظ ما هو إلاّ كائن حيّ يعيش و يتطور ليصوّر كلّ ما في الحياة[90]، فكيف يكون لفظ باعدنا الزمن عنه أربعة عشر قرنا؟ أكيد أن المتصفح لديوان هذيل سيجد كلمات تقف بينه بين ما يريد من فهم و تذوق و استمتاع لكن كلّ هذا الغريب لا يعدّ عيبا، بل ميزة في تقدير الكثير من اللغويين و النّقاد .

فهذا ابن طباطبا يصدر حكما حول أحسن أشعار العرب فيقول : "أحسن الشعر ما توضع فيه كل كلمة موضعها حتى يطابق المعنى الذي أريدت له"[91]. و يواصل حديثه مستشهدا بمقطع من قصيدة لجنوب، أخت عمرو ذي كلب الهذلي ، ثم يتحدث عن الشعر المحكم النسج، فيستحضر أبيات أبي كبير الهذلي التي يقول فيها : [92]

وَلَقَدْ رَبَأْتُ** إِذِ الرِّجَالُ تَوَاكَلُوا .: حَمَّ الظَّهِيرَةِ** فِي اليَفَاعِ الأَطْوَلِ

فِي رَأْسِ مُشْرِفَةِ القُذَالِ** كَأَنَّمَا .: أَطْرُ** السَّحَابِ بِهَا بَيَاضُ المِحْدَلِ**

---

[88] الأمالي : 126/1.

[89] الأمالي : 59/1، ينظر ديوان الهذليين 123/2.

[90] شعر الهذليين : ص236.

[91] عيار الشعر لمحمد بن أحمد بن طباطبا العلوي (ت422هـ) تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام، منشأة المعارف بالإسكندرية بمساهمة شركة الجلال للطباعة، مصر ، ط3، د.ت: 168-169.

[92] ديوان الهذليين : 2/ 9.

** ربأت: كنت ربيئة لهم أي مطلعا.

** حم الظهيرة : أي معظمها .

** مشرفة القذال : لها عنق مشرفة .

** الأطر : ما تعطف من السحاب.

** المحدل : القصر .

ولنقرأ بيت المتنخل الذي يقول فيه : [93]

عَرفْتُ بَأَجْدَتٍ فَنِعَافِ عِرْقٍ** ∴ عَلاماتٍ كَتَحْبِيرِ** النِّمَاطِ

سنجد فيه من الغرابة ما لم يرد في أشعار العرب، ذلك أنّ كتب مختارات الأشعار وصفته بأعجب بيت:[94]

و من هنا يتضح لنا أن غرابة كلام هذيل نابعة عن طبع أصيل فشعرهم رغم ما يكتسبه من غرابة لفظية إلا أنه قيّم و يحمل معاني حياة بدوية جميلة.

و مهما يكن فمن الصعب وضع حدود للهجة قبيلة ما و بالتالي يصعب أيضا تحديد مميزات خاصة بلهجة قبيلة بعينها كهذيل أو تميم أو غيرهما، رغم توفر المادة التي جمعها اللغويون، و ذلك لأنّ الباحث قد يعجز عن تبيين نسبتها، و أيضا قد يعترضه شيء من الغموض فهذه المادة تبقى دائما في حاجة إلى الوضوح و بالتالي يظل المجال فيها مفتوحا للظن و التخمين، فقد شاع في كتب اللغويين قولهم : "قالت العرب" أو "قال رهط من العرب" ...

---

[93] ديوان الهذليين : 18/2.

** أجدت و نعاف و عرق : هي أسماء مواضع .

** التحبير : التنقيش.

[94] الشعر و الشعراء لأبي محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة، تقديم و مراجعة : حسن تميم. و الشيخ محمد عبد المنعم العريان ، دار إحياء العلوم – بيروت – ط5، د.ت: ص643.

ثانيا : الخصائص الفنية في شعر هذيل

لقد كانت هذيل في اعتبار علماء اللغة إحدى أهم الجهات التي يقتدى بها في الإعراب و يعتمد عليها في الغريب، و لئن سبقتها قريش بأنها كانت أجود العرب إنتقاءا للأفصح من الألفاظ و أسهلها على اللّسان عند النّطق [95]، فإن هذيل أعرقت في الشعر أكثر من غيرها، حتى كان الرجل منهم ربما أنجب عشرة من البنين كلهم شعراء.

فقد جاء في الأغاني خبر مفاده؛ أن بني مرّة كانوا عشرة :"أبو خراش و أبو جندب و عروة و الأبح و الأسود و أبو الأسود و عمرو و زهير و جناد و سفيان، و كانوا جميعا شعراء دهاة سراعا لا يدركون إذا عدوا"[96] ثمّ علم أنّ صخر الغيّ كأنّ أخا لحبيب الأعلم و كلاهما شاعر مجيد، و مثل ذلك يقال عن عمرو ذي كلب و أختيه جنوب و ريطة كما كان أبو قلابة* عمّ المتنخّل.

ألا يدلّ كلّ هذا أنّنا بإزاء تراث شعري ضخم أو لنقل مدرسة شعرية لها صفات معينة، دون أن ننكر اشتراك شعر القبيلة مع شعر العرب في خصائص فنية كثيرة.

وجود هذه الخصائص المميزة للقبيلة جعلني أقف في حيرة من أمري، كيف ينبغي أن أتناولها ، أو من أي جانب؟ اللّفظ أم القافية أم المعنى أم الموضوع ؟

على أنّني اهتديت أخيرا إلى تقسيم هذه الخصائص إلى قسمين : قسم يعنى ببناء القصيدة ، و قسم ثان يعرض لبعض الصفات الموضوعية ، و الحق أنني سرت على هذا الطريق متبعة خطوات الدكتور أحمد كمال في كتابه : "شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي".

---

[95] ديوان الهذليين : 3/ب.

[96] الأغاني : 241/21.

* واسمه : أبو قلابة الطابخي أحد بني لحيان و قيل هو خال المتنخل ، ينظرالديوان 37/3.

1- بناء القصيدة :

في هذا القسم بالذّات سأتطرق للحديث عن بناء القصيدة الهذلية من حيث الكم والطّول أو القصر ، كما ساحاول الوقوف عند مطالع بعض القصائد لمعرفة مدى تمسك الشّاعر الهذلي بالوقفات الطللية التقليدية و ما يلتزمه فيها من تصريع و ما إلى ذلك :

أ-الكم :

و لتكن البداية من عدد وحدات القصيدة أو عدد أبياتها، معروف أنّ شعراء العرب لا سيما الجاهليين اعتنوا منذ القديم بطول القصيدة حتّى عرفت طائفة منهم "بأصحاب المطولات"، غير أنّ القصيدة الهذلية خالفت نموذج القصيدة العربية من حيث الطول، فلقد عكفت طوال بحثي على مطالعة ديوان الهذليين يشرح أبي سعيد السكري فأحصيت أربعا وثلاثين قصيدة تجاوزت العشرين بيتا، و سبعا و أربعين أقل من عشرين و ثلاثا و سبعين مقطعة تقل أبيات الواحدة عن عشرة أبيات.

و على هذا الأساس يتضح لنا جليّا أنّ الهذليين لم يحفلوا أبدا بطول القصيدة، فقد كان يكفيهم البيت أو البيتان للتعبير عن حالة ما، فكان بذلك كم القصائد عندهم دون المألوف ولمعرفة السبب الرّئيسي لهذه الظاهرة تجدر بنا العودة إلى الفصل الأ ول و لنتذكّر معا نمط حياة هؤلاء البدو، إنّهاو لا شكّ حياة شاقة كلّها صراع و نهب و سرعة، يضفي عليها عنصر الذؤبان نوعا من الإندفاع و التوثب.

نعم إنّ وجود الذّؤبان جعل حياة القبيلة تندفع بسرعة صارخة، و سرعة الحياة هذه يلزمها سرعة فنية ، و السرعة الفنية - كما وصفها الدكتور أحمد كمال - لا تميل كثيرا إلىالتطويل و لا تحتاج إلى الأناة التي تستلزمها القصائد الطوال.[97]

فمسألة الكم اتصلت دائما بحياة هذيل ، لكنها شاعت أكثر في العصر الجاهلي باستثناء بعض القصائد لكل من أبو ذؤيب ساعدة بن جؤية و المتنخل ، إذ بمجرد دخول الإسلام أخذت الحياة سبيلا آخر تملأه الوداعة و الإستقرار، فجاءت قصائد الهذليين مرآة عاكسة لهذا الإستقرار.

---

[97] شعر الهذليين : ص231.

ب- مطلع القصيدة الهذلية :

و أوّل ما يلقانا في مطلع القصيدة الهذلية ، لا سيما تلك التي جادت بها قرائح الذؤبان، التخلص من المقدمات الغزلية و لا غرابة فهؤلاء الشعراء لم ينفقوا وقتهم في ربط علاقات بالنساء و لا في التغزّل بهن، كما أنّهم لم يبكوا على الأطلال لأنّه لم يكن لهم عهد قديم، فهم يعيشون الحاضر فقط، و يعيشون للعمل . و بالطريقة ذاتها تحرر شعراء هذيل من سمة التصريع ، فلقد جرت عادة الشعراء أن يصرعوا، و قد يتكرر ذلك مرتان أو أكثر في القصيدة الواحدة حسب تعدد الموضوعات، و شعراء هذيل عرفوا بمقطعات لا يتسع فيها المجال لأكثر من موضوع.

و ليس هناك سبب واضح لهذا التّحرر ، فالدكتور أحمد كمال زكي يردّه لانتشار المقطّعات التي لا تتطلّب التّصريع و لكنّه في الوقت ذاته يحدّثنا عن قصائد أبي ذؤيب الّتي تتّسم بالتّطويل و الخلو من التّصريع ، ويعود ليبرر ذلك بقوله : "... و أمّا القصائد الطويلة التي لم تصرّع فقد جاءت إمّا تشبّها بالمقطعات و إمّا عزوفا عن التّقليد، و إمّا لورود المطلع متّصلا..."[98] ثم استشهد بقول أبي ذؤيب في مطلع إحدى قصائده.[99]

عَرَفْتُ الدِّيَارَ كَرَقْمِ الدَّوَا ... ةِ يَزْبِرُهَا الكَاتِبُ الحِمْيَرِيُّ

و مع هذا لا يمكن أن ننكر أبا ذؤيب هو أحد الشعراء الذين حرصوا على التصريع والتشبيب في مقدمات قصائدهم . وهنا أقف لأشير إلى أمر مهم يتمثّل في أنّ التحرر الّذي نتحدّث عنه إنما شاع و انتشر لدى طبقة معينة من الشعراء و هم "ذؤبان هذيل" إذ لا يمكن تجاهل فكرة أنّ هذا المجتمع يضمّ طبقتين أو فريقين طبقة الوداعين والمنعمين المستقرّين و يمثلهم كل من أبي ذؤيب و المتنخّل، و طبقة الشّذاذ والعدّائين من أمثال : أبي خراش و أبي كبير و غيرهما ممن آثر التحرر في كلّ شيء حتى في الفنّ.

---

[98] شعر الهذليين : ص231.

[99] ديوان الهذليين : 64/1.

ج- غرابة اللّفظ :

الألفاظ -كما هو معلوم- تمثل الأساس الّي تبنى عليه القصيدة و لا داعي هنا لإعادة ما قيل عن غرابة اللفظ الهذلي و ما يضفيه من جمال على القصيدة الهذلية فالدكتور أحمد كمال يرى فيه ما يضفي عليها هالات من الجلال و يظللها بظلال رائعة.[100]

هذا ما كان من أمر هذيل و هي لا تزال على جاهليتها ترابض خلف جبال منيعة دون أن تحاول الإختلاط بجيرانها من العشائر و حتى القرى القريبة منها، لكن هل ظلت الغرابة سمة الشعر الهذلي بعد دخول الإسلام، و خروج الهذليين من عزلتهم بعد دخول الإسلام ، وخروج الهذليين من عزلتهم و انتشارهم على طول الجزيرة و خارجها ؟

بطبيعة الحال إن تتبّع أخبار هذيل بعد انتشار الإسلام أمر شاق ، فقد حاولت عبثا تتبع أخبار القبيلة، لكنّني لم أظفر إلاّ بالنّزر القليل لا سيما ما يتعلق باخبار بعض الشعراء المخضرمين و من جاء بعدهم مباشرة من شعراء الدولة الأموية . والواضح أنّهم لم يتخلّوا عن سمة الغرابة في شعرهم، إذ لا وجود لأثر التحضر في قصائدهم لا سيما تلك المنسوبة لأبي صخر و أمية بن أبي عائذ [101]. و لنتأمّل قول أبي صخر : [102]

تعزَّيتَ عَنْ ذِكْرِ الصِّبَى وَ الحبَائِبِ ∴ وَأَصْبَحْتَ عِزْهَى** لِلصِّبَى كَالْجَانِبِ

وَأَصْبحتَ تَلْحَى** حِينَ رِعْتَ** مُحَمَّداً ∴ وَ أَصْحَابَهُ أَنْ يُعْجَبَ بِالكَوَاعِبِ

فالقارئ يشعر للوهلة الأولى أنّ بين يديه إحدى القصائد الجاهلية، و هو الإنطباع ذاته الّذي يطالعه كلما قرأ أبياتا أخرى لشعراء الدولة الأموية من هذيل، فكأنّهم لم يعيشوا زمن بني أمية أو لم تطأ أقدامهم بلاط الخلفاء الأمويين.[103]

---

[100] شعر الهذليين : ص238.

[101] المرجع نفسه : ص241.

[102] شرح أشعار الهذليين : 914/2.

** العزهى : الّذي لا يحب اللهو

** تلحى : تلوم

** رعت : رجعت .

[103] الأغاني: 163/23-164.

2- خصائص موضوعية :

و الهدف من هذا الجزء استخلاص بعض الخصائص المتعلّقة بموضوع القصيدة الهذلية كالأغراض المطروقة ، و ما إلى ذلك .

أ- الوحدة الموضوعية :

إنّ الحديث عن وجود وحدة موضوعية في قصائد هذيل أمر لا يمكن الجزم به، ذلك أنّ ديوان الهذليين و إن غلب عليه كمّ المقطعات المكونة من أبيات معدودة، إلاّ أنّه لم يخلو من بعض القصائد الطوال و بالتالي كان عليّ أن أقف طويلا على هذا المؤلف قبل أيّ شيء، وهذا عرض موجز لبعض القصائد الّتي قد تمثّل الوحدة الموضوعية المنشودة.

و أوّل ما يلقانا من شعر هذيل عينية أبي ذؤيب الّتي يقول في مطلعها : [104]

أَمِنَ المَنُونِ وَ رَيْبِها** تَتَوَجَّعُ ∴ وَالدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتِبٍ** مَنْ يَجْزَعُ

و أبو ذؤيب و إن بدأ قصيدته هذه بوصف حاله، و ذكر حديث أميمة له، إلاّ أنه قصر باقي قصيدة على رثاء أبنائه الخمسة و ما أصابه من بعدهم من ريب الدّهر، مستحضرا ثلاثة حوادث مفزعة كل منهما مستقل عن غيره دون أن يخرج عن فكرة القصيدة المنوطة و المتمثلة في "ريب الدّهر".

أمّا أبو كبير - باعتباره من الذّؤبان- له أربع قصائد طويلة بدأها كلّها بذكر الشيب، و أطولها قصيدته المكونة منة ثمانية وأربعين بيتا [105] و يقول في مطلعها : [106]

أَزُهَيْرُ هَلْ عَنْ شَيْبَةٍ مِنْ مَعْكُمِ ∴ أَمْ لَا خُلُودَ لِبَاذِلٍ مُتَكَرِّمِ

و في هذه القصيدة ظلّ الشاعر يستعيد ذكرياته و مغامراته، فتحدّث عن شبابه فيما يزيد عن تسعة أبيات، ثم انتقل ليحكي عن إحدى غزواته رفقة تأبّط شرا، واصفا أصحابه

---

[104] ديوان الهذليين : 01/1.

** المنون : أي المنية و قيل يقصد بها الدهر ، ريبه : ما يأتي به من الفجائع .

** بمعتب : راجع على عقبه. ينظر : شرح أشعار الهذليين : 1/04-05 .

[105] شعر الهذليين : ص245.

[106] ديوان الهذليين : 111/2

كما تحدث عن إحدى المراقب الّتي يرصد منها النّاس، واصفا بدقة سلاحه ، ليختم قصيدته بالحديث عن إحدى مغامراته النّسائية.[107]

ورغم ما يلمس من تشعب في الموضوع، إلاّ أنّ المطّلع عليها سيجدها حافلة بمغامرات الشّاعر إمّا مع الأصحاب أو مع الأعداء. فالقصيدة في مجملها حديث عن الشباب و ذكرياته.

و كلّ القصائد الطويلة في الدّيوان تجري على هذا النّسق ، فيها كثير من التّركيز والإلتزام بفكرة أو موضوع واحد، باستثناء مجموعة من القصائد الطويلة الّتي آثر أصحابها التّنويع أمثال : المتنخل و ساعدة بن جؤية.

وإذا كان هذا شأن القصائد الطوال، فإنّ الوحدة الموضوعية بدت أوضح و أظهر في القصائد القصيرة و المقطعات فهي لا يمكن أن تسع أكثر من موضوع، و مثالنا على ذلك مقطعة سلمى بن المقعد الهذلي الّتي يقول في مطلعها : [108]

أفلت منّا العلقميّ تزحّفا ∴ و قد خفقت بالظّهر و اللمة اليد

فهي قصيدة قصيرة جدا قوامها ثمانية أبيات تعرض لقصة رجل من بني هلال بن علقمة كان مع قومه يحارب بعض هذيل، فقتل كلّ قومه إلاّ هو ، فلم يجد بدّا من الهرب و قد يطول بنا الأمر لو وقفنا عند كلّ مقطوعة ، فظاهرة الوحدة الموضوعية ملموسة في معظم الأشعار الّتي رويت لهذيل مما رفع المستوى الفنّي لهذه الأعمال.[109]

ب- موضوعات القصيدة الهذلية :

كان للشّعر الهذلي -شأنه شأن الشعر الجاهلي - أبواب رئيسية مستقلة يطرقها الشاعر بغية معالجة موضوع معين، و نظرا لظروف الحياة القاسية الّتي عاشها أفراد القبيلة و الّتي فرضت عليهم القتل و القتال من أجل الإستمرار ، فإنّ الرّثاء غلب على قصائدهم[110]. و لا

[107] القصيدة موجودة في الديوان و لكنها غير كاملة، و لا أثر لها في شرح أشعار الهذليين.

[108] شرح أشعار الهذليين : 791/2.

[109] شعر الهذليين : ص250.

[110] أدباء العرب في الجاهلية و صدر الإسلام لبطرس البستاني، دار المكشوف ، بيروت ، ط10، 1968: ص41.

يمكن الحديث عن الرّثاء دون ذكر عينية أبي ذؤيب الّتي يرثي فيها أبناءه الخمسة الّذين ماتوا إثر طاعون أصابهم ، ويقول فيها [111]:

سَبَقُوا هَوَيَّ وَأَعنقوا لِهَوَاهُمُ ∴ فَتُخُرِّمُوا وَ لِكُلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ

فَغَبَرْتُ ** بَعْدَهُمْ بِعَيْشٍ نَاصِبٍ ** ∴ وَ إِخَالُ أَنِّي لَاحِقٌ مُسْتَتْبَعُ **

و بنفس النّبرة يرثي أبو ذؤيب صديق الصبا و مثله الأعلى نشيبة * فيقول [112]:

وَ إِنِّي صَبَرتُ النَّفْسَ ** بَعْدَ ابنِ عَنْبَسٍ ∴ نُشَيْبَةَ وَالهُلْكَى يَهِيجُ إِدِّكَارُهَا

و هذا ساعدة بن جؤية يرثي ابن عمّ له مات قتلا فيقول : [113]

أَلَا يَا فَتَى مَا عَبْدُ شَمْسٍ بِمِثْلِهِ ∴ يُبَلُّ ** عَلَى العَادِي وَ تُؤْتَى المَخَاسِفُ **

و في هذه القصيدة يصف الشّاعر الطّريقة الّتي قتل بها ابن عمه الملقب "بعبد شمس" دون أن ينسى ذكر خصال الرّجل الّتي ميّزته عن أشراف القبيلة.

و قد يتجاوز شعراء هذيل رثاء الأفراد إلى رثاء الجمع و بكاء العشيرة على نحو ما فعل عبد الله بن أبي ثعلب الهذلي حين رثى من اصيب في الطواعين من أهله بمصر و الشّام[114].

أَعَيْنَيَّ جُودَا عَلَى فِتْيَةٍ ∴ فُجِعْنَا بِهِمْ لَمْ يَكُونُوا لِئَامَا

بِمُرَّةَ يَا حَسْرَتَا بَعْدَهُ ∴ يُذَكِّرُنِي الحَادِثُونَ القُدَامَا

---

[111] ديوان الهذليين : 02/1، البيت الأول سبق شرحه في بداية هذا الفصل .

** غبرت : بقيت.

** ناصب : و النّصب (بالتّحريك) : هو الجهد والتّعب .

** مستتبع : مستلحق ، يريد القول : أما مذهوب بي و صائر إلى ما صار وا إليه .

* نشيبة بن محرث أحد بني مومل بن حطيط بن زيد بن مميم بن سعد بن هذيل .

[112] ديوان الهذليين : 29/1.

** صبرت النّفس : حبستها .

[113] ديوان الهذليين : 222/1.

** يبلّ : يقال : أبلّ على كذا أي غلب عليه .

** المخاسف : الضّيم .

[114] شرح أشعار الهذليين : 885/2.

ويواصل حديثه بالتطرق لوصف خصالهم ، حيث يذكرهم واحدا واحدا إلى أن يصل إلى قوله : [115]

فُجِعْنَا بِهِمْ وَ بِأَمْثَالِهِمْ ∴ مِنْ أَهْلِ الغَنَاءِ فَأَمْسَوْا رَمَامَا
جَمَاجِمُ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الحَمِيمِ ∴ وَفِي النَّاسِ كَانُوا أُسُودَ حِمَامًا**

وقد يطول بنا الوقوف إذ ما حاولنا الإستقصاء عن كلّ ما قيل في الرّثاء، ذلك لأنّ معظم شعر هذيل في الرّثاء غير أنّ الوصف يبقى مع ذلك أعظم ركن يعتمد عليه اولئك الشعراء، وهذا أمر طبيعي لأنّ معظمهم كانوا بدوًا، و ميزة البدوي عينه النافذة الحديدة اللّحظ، المتنبهة لكلّ ما حولها من موصوفات ، و لنتامل كيف يصف ساعدة بن جؤية شيخا هرما: [116]

وَسْنَانُ** لَيْسَ بِقَاضٍ نَوْمَةً أَبَداً ∴ لَوْلاَ غَدَاةٌ يُسِيرُ النَّاسُ لَمْ يَقُمِ
فِي مِنْكَبَيْهِ وَ فِي الأَصْلاَبِ** وَاهِنَةٌ** ∴ وَفِي مَفَاصِلِهِ غَمْزٌ مِنَ العَسِمِ**

****

فَقَامَ تَرْعَدُ كَفَّاهُ بِمِحْجَنِهِ** ∴ قَدْ عَادَ رَهْباً** رَدِيًّا طَائِشَ القَدَمِ
تَاللَّهِ يَبْقَى عَلَى الأَيَّامِ ذُو حِيَدٍ ∴ أَدْفَى** صَلُودٍ** مِنَ الأَوْعَالِ ذُو خَدَمِ

إنّ هذه الصورة الشّعرية الجميلة ما كانت لتستوي بكلام منثور بسيط سطحي بعيد عن الدقة، فالشاعر يصف لنا بدقّة حال عجوز ضعيف أحدب ينوء بحشد من العلل

---

[115] شرح أشعار الهذليين: 887/2.

** حماما : أي أهل الحامة و الخاصة.

[116] ديوان الهذليين: 192/1- 193

** وسنان : كثير النعاس

** الأصلاب : المفاصل .

** واهنة : وجع يصيب العنق و المنكبين .

** العسم : الضعف

** المحجن : ما يتوكّأ عليه .

** الرهب : الرقيق الضعيف

** أدفى : أحدب.

** صلود : يصلد برجله : أي يضرب به على الصّخر فيسمع لها صوت .

والأوجاع، إذ سار استند إلى عصاه، أما كفّاه فمرتعدتان ، و قدماه طائشتان لا تعرفان سبيلا.

و بالطّريقة ذاتها تعرض الهذليون لوصف الحيوانات لا سيما حمار الوحش و الثيران، من ذلك ما قاله الداخل* بن حرام في وصف بقرة وحشيّة :[117]

وَهَادِيَةٍ** تَوَجَّسُ كُلَّ غِيبٍ** ∴ إِذَا سَامَتْ** لَهَا نَفَسٌ نَشِيجُ**

تُصِيخُ إِلَى دَوِيِّ الأَرْضِ تَهْوِي ∴ بِمَسْمَعِهَا كَمَا أَصْغَى الشَّجِيجُ**

فالشاعر في هذه الأبيات غاص بأعماق هذه البقرة الفزعة، فنجح في تصوير ذعرها وهي تمشي مصغيّة و أنفاسها متلاحقة في نشيج مستمر، فكأنّنا إزاء تحليل لنفسية هذا الحيوان ووصف في منتهى الدقة لما يختلج بنفس حيوان مذعور، و هذا الأمر ليس بالغريب عن شعر هذيل ، فهم فنانون دأبهم وصف مثل هذه البدرات النفسية النابغة أساسا من محيطهم الطبيعي.

و هو ما ألمح إليه الدكتور أحمد كمال حين قال : "... كانوا ناسا هيّء لهم ما يهيّا لكلّ فنان مفتوح العينين و القلب و الذّهن.. عرفوا الحياة فهموها و خبروا نوازع الكائنات فيها..."[118].

و مجمل القول إنّ الهذليين وصفوا كلّ ما وقع تحت أعينهم في بيئتهم من مطر و برق وحيوانات، كما وصفوا معاركهم و أيّامهم الحافلة بالإنتصارات ، كما وصفوا الطّرق الّتي سلكوها و وصفوا الخمرة و تأثيرها[119]. على أ نّ شعر الهذليين لم يكن مقصورا على الرّثاء

---

* الداخل بن حرام : اسمه زهير بن حرام وهو أحد بني سهم بن معاوية .

[117] شرح أشعار الهذليين : 612/2.

** هادية : بقرة تتقدم القطيع .

** توجس : تسمع في ذعر .

** سامت: ذهبت و جاءت

** النشيج : صوت النفس إذ ردّ إلى الصّدر .

** الشجيج : شبه البقرة وقد أهوت رأسها مصغية بالذي به شجة قاطرة، فهو يستدعي، فيمدّ رأسه.

[118] شعر الهذليين : ص268.

[119] أبو ذؤيب الهذلي : ص34.

والوصف، فقد كانت لهم قصائد يتخللها الفخر و الهجاء و الحكمة و الغزل ، و مما قيل في النسيب مثلا أبيات أبي صخر الهذلي الشهيرة التي يقول فيها : [120]

أَمَا وَ الَّذِي أَبْكَى وَ أَضْحَكَ والَّذِي ∴ أَمَاتَ وَ أَحْيَا وَالَّذِي أَمْرُه الأَمْرُ

لَقَدْ تَرَكَتْنِي أَغْبَطُ الوَحْشَ أَنْ أَرَى ∴ أَلِيفَيْنِ مِنْهُمَا لاَ يَرِيعُهُمَا الزَّجْرُ

وصلتك حتّى قلت لا يعرف القلى ∴ وزرتك حتّى قلت ليس له صبر

ج- ملامح القصة في شعر هذيل :

لقد كانت القصة الشعرية مذهبا عامّا في شعر هذيل ، يلجأ إليها شعراؤهم فيتحدّثون فيها متيقّظين و يرون أحداثا يتخيّلونها بكامل وعيهم، و يضعون لها نهاية متى شاؤوا .

و مثل هذه القصص المنظومة كان لها حظ من مقومات القصّة العادية فهي ترتكز أساسا على موضوع واحد و شخصيات يجمعها الحوار.[121]

و لا سبيل إلى الإنكار من أنّ أحداث هذه القصص الشعرية كانت مرتبطة بواقع القبيلة و هذا أمر لمسته شخصيا من خلال إحدى قصص الشاعر ساعدة بن جؤية التي يبدؤها بهذه الأبيات :

وَتَاللَّهِ مَا إِنْ شَهْلَةَ أُمُّ واحِدٍ ∴ بِأَوْجَدَ مِنِّي أَنْ يُهَانَ صَغِيرُهَا

رَأَتْهُ عَلَى يَأْسٍ وَقَدْ شَابَ رَأْسُهَا ∴ وَحِينَ تَصَدَّى لِلهَوَانِ عَشِيرُهَا

فالمرأة بطلة القصة مسنة ذاقت ألوانا من الذل و هي تنتظر صغيرها الّذي لم تنله إلاّ بعد عمر من الإنتظار فاهتمت به و عكفت على تربيته، فشبّ قويا و صادقا يغزو و يقاتل لنصرة قومه.

و تمرّ فصول من الحياة مألوفة يصفها لنا الشاعر بدقّة، -لا مجال للخوض فيها هنا - و بمهارة القصّاص البارع ينتقل بنا إلى اليوم الذي خرج فيه الفتى من دياره رفقة ثلاثة من أصحابه فيقول :

تَقَدَّمَ يَوْمًا فِي ثَلاَثَةِ فِتْيَةٍ ∴ بِجَرْدَاءَ نَصْبٍ لِلغَوَازِي ثُغُورُهَا

---

[120] شرح أشعار الهذليين : 957/2.

[121] فن القصة القصيرة بالمغرب في النشأة و التطور و الإتجاهات لأحمد المديني ، دار العودة - بيروت - ط1 - د.ت : ص 40-41.

فَبَيْنَاهُم يُتَابِعُونَ لينتَهُوا ∴ بِقَذْفٍ نِيافٍ مُسْتَقِلٍ صُخُورُهَا
رَأُوا مِن قَدَى الكَفَّينِ قدَّامَ عدوةٍ ∴ مُحيطًا بِهِ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ حُضُورُهَا

فلقد سار الفتى مع رفاقه و تقدّم على هذه الأرض المليئة بالعيون و الأرصاد، إلى أن وصل إلى جبال مرتفعة إعتلاها فوجد نفسه فجأة وجها لوجه مع أعدائهم ، و هنا يطلق الشاعر العنان لمخيلته فيصف أطوار هذا الاشتباك الدامي دون أن ينسى بطل قصته (الفتى)، إذ يرصد لنا حركاته واضطرابه في الميدان ، و لا يطول به الأمر فيلقى حتفه و هنا يعود بنا الشاعر إلى القبيلة حيث تنتظر الأم الحزينة نذير الشؤم الّذي ينعي إليها ابنها ، فيقول : [122]

فَقَامَتْ بِسِبْتٍ يَلْعَجُ الجِلْدَ تَارِنٍ ∴ وَعزَّ عَلَيْهَا هَلْكَهُ وَ غُبُورُهَا

فالشّاعر بهذه الصورة إنّما يحيلنا على جانب من الحياة العربية أين تعبّرالمرأة عن حزنها بضرب وجهها بالنعال و اللّطم .

و هذه القصّة في مجملها صوّرت معالم شخصيّة في إطار من الحياة الاجتماعية، و هي بالتّأكيد ليست حقيقية كلها، إنّما للخيال فيها أثر كبير .[123]

و مثل هذه القصص الشّعري العذب شائع في ديوان الهذليين من ذلك قصّة "الوعل" الّتي جاءت على لسان صخر الغيّ.[124]

و خصائص شعر هذيل لا تعدّ و لا تحصى، فهي حقا تمثل صرحا شعريا لقبيلة شغلت الدنيا بشعرائها لذلك آثرت الوقوف هنا خشية المضيّ بعيدا بلا غاية أو هدف .

---

[122] ديوان الهذليين : 215/2.

[123] شعر الهذليين : ص259.

[124] شرح أشعار الهذليين : 146/1-150.

ثالثا : صور البيان في شعر هذيل

الخيال عنصر هام في العمل الفني ، فهو يدعو إلى الإختراع و الجمع بين عناصر غير مترابطة .

و السّمة الغالبة على الخيال في شعر هذيل هي الجموح و الإغراب و الربط بين الأمور والأشياء المتباعدة [125].

و الأمر الوحيد المؤكد هو أنّ الهذليين لم يستعينوا في إثراء خيالهم الشعري بصور كثيرة، و هذا ما أكده الدكتور أحمد كمال بقوله : "... إذ نظرنا في المجاز، و سائر ألوان البيان ، فلن نعثر إلاّ على جزئيات لا نستطيع أن نحكم بها على الكلّ، فهي ليست مطردة الظّهور... "[126].

و لّما كان التشبيه مقياسا لبلاغة الشاعر و معيارا يقاس به بيان الشاعر فإنّ الهذليين استعانوا به و اعتمدوا عليه في خيالهم الشعري أكثر من غيره. بل حاولوا من خلاله خلق صور جديدة .

- التشبيه[127] في شعر هذيل :

مهما تتعدّد تعريفات التشبيه، فهو عموما يدلّ على اشتراك شيئين في صفة أو أكثر[128].

وما يهمنا نحن في هذا الموضع هو ميزة التشبيهات التي طبعت شعر الهذليين، إنها و لا شكّ تتميز بالغرابة، و تتفرّد بالخشونة أحيانا كثيرة، خشونة عكستها طبيعة اللغة و الصور التي استخلص الهذليون تعابيرها من واقعهم البدوي.

---

[125] أبو ذؤيب الهذلي: ص119.

[126] شعر الهذليين : ص273.

[127] التشبيه كما عرفه أبو هلال العسكري يعني : "الوصف بأن ينوب أحد الموصوفين مناب الآخر بأداة التشبيه .."، ينظر الصناعتين : الكتابة والشعر لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (ت395هـ)، تحقيق : د.مفيد قميحة، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط2، 1409-1989م: ص261.

[128] التلخيص في علوم البلاغة لجلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني الخطيب: شرح الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي ، دار الكتاب العربي، لبنان، ط1، د.ت: ص238.

فلون جلود هذه الضّباع كلون ثياب الرهبان بينما آذاهن كالمغارف، و هي صـــورة مقتضبة لكنها دقيقة.

و لنقف عند قول صخر الغي في وصف الغيم و السحاب [132]:

كَـــأَنَّ تَـــوَالِيه بِـــالمَـــلاَ ∴ نَصَارَى يُسَاقُونَ لاَقُوا حَنِيفًا

فتتابع الغيم يشبه جماعة نصارى التقوا برجل حنفي، والحق أنّ الصورة رغم ما تحمله من تناقض جميلة و تعج بالحيوية و النشاط.

ويحدثنا صخر الغي في موضع آخر عن مشية نمر فيقول : [133]

وَمَاءٍ وِرِدْتُ عَلَى زَوْرَةٍ** ∴ كَمَشْيِ السَّبَنْتَى** يَرَاحُ الشَّفِيفَا**

فهو يقصد منبع ماء و يمشي على رسله، لأنه يخشى أن يجد على الماء بعض أعدائـــه، وهو في مشيته كنمر يلتمس خطاه في ليلة باردة.

و للسلاح أهمية كبيرة في حياة الهذلي لذلك هو قد يقرنه بأعز صاحب أو حبيب على نحو ما جاء في قول شاعر يقال له البريق* [134]:

مَعِي صَاحِبٌ مِثْل نَصْلِ السِّنَانِ ∴ عَنِيفٌ عَلَى قَـــرْنِه مِغْشَـــمُ

ومثله قول أبي كبير في أخ له : [135]

وَ لَرُبَّ مَنْ دَلَّيْتُهُ لِحَفِيرَةٍ ∴ كَالسَّيْفِ مُقْتَبَلِ الشَّبَابِ مُحَبَّرِ**

و بالطريقة ذاتها يشبه أبو ذؤيب صوت القسي ببكاء النساء : [136]

كَأَنَّ ارْتِجَازَ الجُعْشُمِيَاتِ** وَسْطَهُمْ ∴ نَوَائِحُ يَشْفَعْنَ البُكَى بِالأَزَامِلِ**

---

[132] ديوان الهذليين : 71/2.

[133] المصدر السابق، 74/2.

** على زورة : مخافة

** السبتى : من أسماء النمر

** الشفيفا : البرد

* البريق : و اسمه عياض بن خويلد الخناعي.

[134] ديوان الهذليين : 56/9.

[135] المصدر السابق: 102/2.

** المحبّر : المزين

[136] ديوان الهذليين : 84/1.

** الجعشميات : القسي .

** الأزامل : الصوت .

و من التشبيهات الغريبة المبثوثة في ديوان الهذليين ما جاء في قول أبي ذؤيب الهذلي:[129]

فِرَاقٌ كَقَيْصِ السِّنِّ فَالصَّبْرَ إِنَّهُ ∴ لِكُلِّ أُنَاسٍ عَثْرَةٌ وَ جُبُورُ **

فالشّاعر هنا يشبه ألم الفراق بقيص السن أي انشقاقها و قلعها، و هو بذلك يربط بين مشاعر نفسية و أمور حسية .

ولعلّ أجمل صور التشبيه تلك التي ساقها لنا المتنخل في طائيته الشهيرة وهو يصف ماءا ورده[130]:

كَأَنَّ وَغَى الخُمُوشِ ** بِجَانِبَيْهِ ∴ وَغَى رَكْبٍ أُمَيْمَ ذَوِي هِيَاطِ **

كَأَنَّ مَزَاحِفَ الحَيَّاتِ فِيهِ ∴ قُبَيْلَ الصُّبْحِ آثَارَ السِّيَاطِ

و الصّورة كما جاءت دقيقة إلى أبعد الحدود حتى كأنّ القارئ لها يرى و يسمع ما رأى و سمع الشاعر .

فصوت البعوض (الخموش) يشبه أصوات المجادلة (الهياط) و أصوات الوغى (جلبة الحرب)، إضافة إلى ذلك زحف الحيات قرب المورد ترك آثارا تشبه آثار السّياط، و هذا التشبيه طويل نوعا ما لكنه دافق الحيوية ملئ بالحياة .

و بيئة شعراء هذيل البدوية جعلتهم يلتمسون في تشبيهاتهم الكثير من صور الحيوانات و الوحوش المحيطة بهم من ذلك قول حبيب الأعلم يصف ضباعا صغيرة :[131]

وَ تَجُرُّ مُجْرِيَةٌ ** لَهَا ∴ لَحِمِي إِلَى أَجْرٍ حَوَاشِبْ **

سُودٍ سَحَالِيلٍ ** كَأَنَّ ∴ جُلُودَهُنَّ ثِيَابٌ رَاهِبْ

آذَانُهُنَّ إِذَا احْتَضَرْ ∴ نَ فَرِيسَةً مِثْلَ المَذَانِبْ

---

[129] ديوان الهذليين : 121/1.

** عثرة و جبور : يقصد يعثرون ثمّ يجبرون .

[130] ديوان الهذليين : 25/2.

** الخموش : البعوض

** الهياط : الأصوات المرتفعة.

[131] ديوان الهذليين : 80/2.

** أجرية : يقصد جراء و مفردها جرو

** حواشب : منتفخة البطن .

** السحاليل: الثياب .

فلون جلود هذه الضّباع كلون ثياب الرهبان بينما آذاهن كالمغارف، و هي صـــورة مقتضبة لكنها دقيقة.

و لنقف عند قول صخر الغي في وصف الغيم و السحاب [132]:

كَـــأَنَّ تَـــوَالِيهِ بِـــالمَـــلاَ ∴ نَصَارَى يُسَاقُونَ لاَقُوا حَنِيفًا

فتتابع الغيم يشبه جماعة نصارى التقوا برجل حنفي، والحق أنّ الصورة رغم ما تحمله من تناقض جميلة و تعج بالحيوية و النشاط.

ويحدثنا صخر الغي في موضع آخر عن مشية نمر فيقول : [133]

وَمَاءٍ وِرِدْتُ عَلَى زَوْرَةٍ** ∴ كَمَشْيِ السَّبَنْتَى** يَرَاحُ الشَّفِيفَا**

فهو يقصد منبع ماء و يمشي على رسله، لأنه يخشى أن يجد على الماء بعض أعدائـــه، وهو في مشيته كنمر يلتمس خطاه في ليلة باردة.

و للسلاح أهمية كبيرة في حياة الهذلي لذلك هو قد يقرنه بأعز صاحب أو حبيب على نحو ما جاء في قول شاعر يقال له البريق* [134]:

مَعِي صَاحِبٌ مِثْلُ نَصْلِ السِّنَانِ ∴ عَنِيفٌ عَلَى قَـــرْنِهِ مِغْشَـــمُ

ومثله قول أبي كبير في أخ له : [135]

وَ لَرُبَّ مَنْ دَلَيْتُهُ لِحَفِيرَةٍ ∴ كَالسَّيْفِ مُقْتَبَلِ الشَّبَابِ مُحَبَّرِ**

و بالطريقة ذاتها يشبه أبو ذؤيب صوت القسي ببكاء النساء : [136]

كَأَنَّ ارْتِجَازَ الجُعْثُمِيَاتِ** وَسْطَهُمْ ∴ نَوَائِحُ يَشْفَعْنَ البُكَى بِالأَزَامِلِ**

---

[132] ديوان الهذليين : 71/2.

[133] المصدر السابق، 74/2.

** على رورة : مخافة

** السنبتي : من أسماء النمر

** الشفيفا : البرد

* البريق : و اسمه عياض بن خويلد الخناعي.

[134] ديوان الهذليين : 56/9.

[135] المصدر السابق: 102/2.

** المحبّر : المزين

[136] ديوان الهذليين : 84/1.

** الجعثميات : القسي .

** الأزامل : الصوت .

أمّا التشبيهات البعيدة** أي الغريبة فقد وردت بكثرة في شعر الهذليين منهـــا قــول ساعدة بن جؤية : [137]

كَسَاهَا رَطِيبُ الرِّيشِ فَاعْتَذَلَتْ لَهَا ∴ قِدَاحٌ كَأَعْنَاقِ الظِّبَاءِ الفَوَارِقِ

علّق ابن طباطبا على هذا البيت بقوله : "شبّه الهام بأهناق الظّباء، ولو وصفها بدقّــة كان أولى ..."[138].

و يتحدّث المبرد عن بيت أبي خراش حين يقول : [139]

كَــأَنَّــهُمْ يَشْبُثُونَ بِطَائِــرٍ ∴ خَفِيفِ المُشَاشِ عَظْمُهُ غَيْرُ ذِي نَحْضِ

فيصفه بقوله : "هو من أفراط التشبيهات"[140]، و بالفعل فالشاعر يصف ســرعة ابنــه خراش و يشبهه بطائر خفيف المشاش (أي قليل اللحم).

و هذا أبو ذؤيب يصف العسل فيقول : [141]

فَجَاءَ بِمَزْجٍ لَمْ يَرَ النَّاسَ مِثْلَهُ ∴ هُوَ الضَّحِكُ إِلاَّ أَنَّهُ عَمَلُ النَّحْلِ

فهو شبّه بياض العسل بالثّغر (الضحك).

وبعد كلّ هذا لا يمكن تقصّي كل صور التّشبيه لأنها كثيرة و معقّدة أحيانــا تحتــاج إلى تفصيل أكثر، لأجل ذلك فضّلت التوقف هنا فتلك الصور فعلا تفصح عن نفسية الهذليين وتكوينهم الفطري إضافة إلى ذلك فهي مثال صادق عن الجمال و الإتزان و الصّدق.

ومع هذا لا يمكن إنكار وجود بعض صور البيان الأخرى المبعثرة هنا و هناك فهي من الوسائل الضرورية للأداء.[142]

** عرّف ابن طباطبا التشبيهات بقوله : هي التي لم يلطف أصحابها فيها.

[137] بيت بن جؤية لم يرد في الديوان و لا في شرح الديوان .

[138] عيار الشعر : ص127.

[139] ديوان الهذليين : 159/2.

[140] الكامل في اللغة و الأدب لأبي العباس محمد بن يزيد المعرف بالمبرّد النحوي (ت285هـ) ، تحقيق نغاريد بيوض و نعيم زرزور ، دار الكتــب العلمية ، بيروت، لبنان، ط1، 1405هـ، 1987م: 95/2.

[141] ديوان الهذليين : 42/1.

[142] شعر الهذليين : ص274.

ومن يستطيع ذكر الإستعارة دون استرجاع بيت أبي ذؤيب الشهير : [143]

وَإِذَا المَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا ∴ أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لاَ تَنْفَعُ

وقول أبي خراش في فتح مكة عندما قتل أحد أصحابه : [144]

وَأَبْرِحْ مَا أُمِرْتُمْ وَ مَلَكْتُمْ ∴ يَدَ الدَّهْرِ مَا لَمْ تَقْتُلُوا بَغَلِيلِ

إذ جعل الشاعر للدهر يدا تمتلك، وهو يريد القول : ما أمرتم إذا كانت الإمارة فيكم فابرح بغليل ما لم تقتلوا.

ولنتأمّل قول أبي ذؤيب في قصيدة يلوم فيها أم عمرو و خالد بن زهير على خيانتهما:[145]

أَتَى قَرْيَةً كَانَتْ كَثِيرًا طَعَامُهَا ∴ كَرَفْعِ** التُّرَابِ كُلَّ شَيْءٍ يَمِيرُهَا

فَقِيلَ : تَحَمَّلْ فَوْقَ طَوْقِكَ إِنَّهَا ∴ مُطَبَّعَةٌ مَنْ يَأْتِهَا لاَ يَضِيرُهَا

فهو يريد أنّ هذه القرية مملوءة بالطّعام، فكنّى عن ذلك بقوله أنها مطبعة أي مختومة، والختم يكون غالبا بعد الملء.

و ثمة ألوان أخرى من البيان لا يمكن حصرها في هذا المقام، إذ المهم هو كشف حقيقة فصاحة هذيل و علاقتها بصور البيان .

---

[143] ديوان الهذليين : 03/1.

[144] المصدر نفسه : 157/2.

[145] المصدر نفسه: 154/1.

** الرفع : التراب الكثير، و توصف به الأرض ذات التراب الكثير.

الفصل الثالث

صور البيان في شعر أبي خراش الهذلي

أولا : أبو خراش الهذلي

1- نسبه

2- نشأته

3- إسلامه

4- وفاته

5- بعض خصائص شعر أبي خراش

ثانيا : الصور البيانية في شعر أبي خراش

1- التشبيه

* التشبيه المفصل

* التشبيه المجمل

* تشبيهات أخرى

2- الإستعارة

*الإستعارة المكنية

3- الكناية

* كناية الصفة في شعر أبي خراش

* كناية الموصوف في شعر أبي خراش

أولا: أبو خراش الهذلي

ديوان الهذليين من الكتب النادرة الّتي وصلتنا كاملة لأجل ذلك تناولته مصادر الشعر الجاهلي بالدرس، لكن من دون أن تركز على مسائل كثيرة كاللّغات و الخيال الشّعري وغيرها، ولذلك عكفت على مطالعة هذا الدّيوان، بشرح لأبي سعيد السكري ، فلم أجده يتناول سوق الغامض من الشّعر و معاني عدد من الكلمات الغريبة.

و من العجيب أنّ هذه المصادر أهملت في دراساتها جوانب هامة من حياة شعراء طالما اهتزت لشعرهم الأفئدة، و أثارت مغامراتهم النفوس، و لنقف في بداية هذا الفصل عند أحد أولئك الشعراء المغمورين من هذيل وهو شاعر وصف أحيانا بالفصيح المفلّق و أحيانا كثيرة بالفارس العربي الفحل إنّه أبو خراش الهذلي.

1- نسبه :

هو كما جاء في خزانة البغدادي : "خويلد بن مرّة أحد بني قرد بن عمرو بن معاوية بن تميم بن سعد بن هذيل"[1].

و على أيّة حال لم يصلنا ما يبيّن ظروف نشأته و لا متى ولد ، إذ لم يذكر أحدكم سنة عاشها، و كم سنة شهدها قبل أن يسلم ، فابن قتيبة مثلا اكتفى بذكر نسبه مفصّلا في سطر واحد مشيدا بشاعرية أخويه "عروة و أبو جندب".[2]

2-نشأته :

يبدو أنّ أبا خراش عاش في جوّ أسري مضطرب ، إذ تبدأ حياته بوفاة أمه و زواج أبيه من امرأة أخرى ليصبح شاعر الرّثاء الأوّل في قبيلته[3]، كما عاش فقيرا متمرّدا ساخطا على أوضاعه، متساميا عن الذلّة و الضعة كيف لا وهو يجعل الشّرف في الصبر على الجوع، وحبّ الزاد هو الأثرة [4]. ثمّ إنّ أبا خراش عاش حياة الجاهليين الميسّرة و لم يلبث أن ثار على تلك

---

[1] خزانة الأدب و لبّ لباب لسان العرب لعبد القادر بن عمر البغدادي ، المطبعة السلفية و مكتبتها ، القاهرة 1348هـ، ط1: 400/1.

[2] الشعر و الشعراء لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، تقديم الشيخ حسن تميم، مراجعة عتبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم ، بيروت، 1414هـ-1994م، ط5: ص445.

[3] ينظر ديوان الهذليين : 142/2.

[4] المصدر نفسه : 125/2.

الحياة الوادعة فأصبح مطاردا و مطلوبا ليرسم بذلك خطوط شخصية أحد صعاليك العـــرب المشهورين، و يضيف اسمه إلى قائمة "ذؤبان هذيل العدّائين"[5].

و في الحقيقة ليست هناك ترجمة واضحة يمكن الإعتماد عليها في تحديد بدء تصعلـــك الرجل، فكلّ ما هناك من روايات لا تدلّ إلاّ على أنّه فتى كثير الغزو للعشائر الّتي يعيش بينها قومه كثمالة و بني الدّيل[6]، و معظم هذه الرّوايات ساقها لنا أبو الفرج الأصفهاني بأسلوب لا يخلو من الطرافة و المبالغة ، و هي كثيرة لا سبيل لذكرها هنا .

3- إسلامه :

و يمرّ الزّمن و أبو خراش في صراعه مع الحياة يحارب الفاقة، و يضطرب فيما يضطرب فيه سائر الذؤبان ترقب و تربص و قتال، إلى أن حلّ نور الإسلام علـــى المعمـــورة فأســـلم وحسن إسلامه ، وقد أشار البغدادي – في هذا الصدد– أنّ إسلامه كان يوم حنين[7] هذا اليوم الّذي قتل فيه صديق صباه "زهير ابن عجوة" فأنشأ يقول : [8]

أَفِي كُلِّ مُمْـــسَى لَيْـــلَةَ أَنَا قَائِلٌ ∴ مِنَ الدَّهْرِ لاَ تَبْعَـــدْ قَتِيلَ جَمِيلِ
فَمَا كُنْتُ أَخْشَى أَنْ تَنَالَ دِمَاءَنَا ∴ قُـــرَيْشٌ وَ لَمَّـــا يُقْتَلُوا بِقَتِيلِ
وَأَبْـــرَحُ مَـــا أَمِـــرْتُمْ وَ مَلَكْتُمْ ∴ يَـــدَ الدَّهْرِ مَا لَـــمْ تَقْتُلُوا بِغَلِيلِ

و الظّاهر أنّ إسلام أبي الخراش في البداية لم يكن إلا استسلاما للأوضاع الجديدة، وما يدلّ على ذلك قوله : [9]

فَلَيْسَ كَعَهْدِ الدَّارِ يَا أُمَّ مَالِـــكٍ ∴ وَلَكِن أَحَاطَتْ بِالرِّقَابِ السَّلاَسِلُ
وَعَادَ الفَتَى كَالكَهْلِ لَيْسَ بِقَائِلٍ ∴ سِوَى العَدْلِ شَيْئًا فَاسْتَرَاحَ العَوَاذِلُ

فهو يريد القول أنّ الإسلام أحاط بالرّقاب، و لم يعد يجدي سوى قول الحق و الإنتصار له.

---

[5] شعر الهذليين ، ص: 365-367.
[6] الأغاني : : 21/230-231.
[7] خزانة البغدادي : 1/400.
[8] ديوان الهذليين : 2/157.
[9] المصدر نفسه : 2/150.

وبمرور الوقت أخلص الرجل للإسلام ، وهو لا شكّ قد أنفق في ذلك زمنا، قبل أن تصفو نفسه ويلين قلبه فينزع عنه رداء الطيش و النزق و ليعرفه الناس في صدر الإسلام شيخا وقورا و طيّبا لا حدود لسماحته[10]، بدليل حزن سيدنا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه- على وفاته[11]. و يبدو أنّ شاعرنا كان من المخضرمين الّذين لم يكتب لهم لقاء ولا رؤية رسول الله صلى الله عليه و سلّم.[12]

4-وفاته :

روت كتب الأخبار أنّ أبا خراش توفي في خلافة عمر بن الخطاب و كان قد بلغ من العمر عتيّا، لكنهم لم يحدّدوا إطلاقا عمره آنذاك و لا سنة وفاته.

فقد روى الأصمعي فقال : "مرّ على أبي خراش نفر من اليمن حجّاجا ، فنزلوا عليه فقال : ما أمسى عندي ماء و لكن هذه برمة و شاة و قربة فردوا الماء فإنّه غير بعيد ثم اطبخوا الشاة و ذروا البرمة و القربة عند الماء نأخذهما. فامتنعوا و قالوا : لا نبرح، فأخذ أبو خراش القربة و سعى نحو الماء تحت اللّيل فاستقى ثمّ أقبل فنهشته حيّة، فأقبل مسرعا حتّى أعطاهم الماء و لم يعلمهم بما أصابه ، فباتوا يأكلون ، فلمّا أصبحوا وجدوه في الموت، فأقاموا حتّى دفنوه. "[13]

و الطّريف في خبر وفاة أبي خراش - كما نقله أبو الفرج الأصفهاني - أنه، وهو ينازع الموت أنشد يقول :[14]

لَعَمْرُكَ وَ المَنَايَا غَالِبَاتُ .: عَلَى الإِنْسَانِ تَطْلُعُ كُلَّ نَجْدِ
لَقَدْ أَهْلَكْتِ حَيَّةَ بَطْنِ أَنْفٍ .: عَلَى الأَصْحَابِ سَاقًا بَعْدَ فَقْدِ

فهو لايأسف على شيء قطّ إلاّ على ساقه الّتي طالما كانت له عونا .[15]

---

[10] شعر الهذليين في العصر الجاهلي و الإسلامي : ص366.

[11] سبقت الإشارة في الفصل السابق إلى حادثة شكوى أبي خراش للخليفة عمر بن الخطاب إثر سفر ابنه للجهاد، و استجابة أمير المومنين - في نظري- دليل آخر على إخلاص الرجل لدينه ، ينظر : الأغاني : 26/21.

[12] الأغاني : 230/21.

[13] نفسه : 21 /48.

[14] الديوان : 171/2. و الأغاني : 47/21.

[15] روي أنّ أبا خراش دخل مكّة في الجاهلية ، فرأى الوليد بن المغيرة له فرسان يريد إرسالهما إلى الحلبة، فقال: "ما تجعل إن سبقتها عدوا؟" ، قال: "إن فعلت فهما لك .. فسبقها" ، ينظر : الأغاني ، 21/ ..

والأهم من ذلك كله أنه لما بلغ عمر بن الخطاب نعي شاعرنا غضب غضبا شـــديدا وقال : "لولا أن تكون سنّة لأمرت أن لا يضاف يمني على الإطلاق..." ثم كتب -رضي الله عنه- إلى عاملة يأخذ النفر الّذين نزلوا بهت فيغرّمهم ديّته.."[16]

و بذلك طويت صفحة تاريخية عن أسطورة في الفروسية و الشـــجاعة، و نابغـــة في القريض، و نموذج بديع للرجل المسلم. فلا غرابة أن يعجب به "عمر بن الخطّـــاب" وقـــد رأى فيه مثالا عن الصّفاء و الإطمئنان بعد طول عناد وثورة .[17]

5- بعض خصائص شعر أبي خراش :

إنّ شعر أبي خراش في مادّته و موضوعه يشترك - ولا شـــكّ- مـــع كثـــير مـــن الخصائص مع سائر شعر هذيل، إذ لا يمكن إخراجه من الدائرة الّتي وضع فيها شعر قومه. وحتى لا أقع في تكرار ممل اكتفيت بعرض مقتضب لأهمّ صفات و مميزات شعره :

1- يرى الدّكتور أحمد كمال زكي أنّ شعر أبي خراش خير ما يمثل السّرعة الفنية[18]، ذلك أنّه عبارة عن مقطعات و قصائد قصيرة لا تتجاوز البيتين أو الثلاثة، فـــالوقوف علـــى شعره لا يرينا إلاّ ثلاثة قصائد طويلة إثنان منها في الرّثاء [19] و الثالثة يتحدث فيها عن نظرته وآرائه في الحياة و يستهلّها بقوله [20]:

لَقَدْ عَلِمَتْ أُمُّ الأُدَيْبِرِ أَنَّـــنِي .: أَقُولُ لَهَا هَدِّي[21] وَ لاَ تَذْخَرِي لَحَمْي

2- أمّا ألفاظ شعره فكانت بحقّ بدوية نابعة عن الفطرة تتميز بالصّدق و العفوية، فهو لم يعتد تزيينها أو التأنق فيها الأمر الّذي جعلها غريبة و خشنة.[22]

ولئن كانت له قصائد تتفرد باللّفظ الرّقيق الحلو لا سيما في الرّثاء لم تعدم فيها غرابة البادية .

---

[16] خزانة الأدب : 400/1.

[17] شعر الهذليين : ص368

[18] المرجع نفسه : ص374.

[19] ينظر الديوان : 116/2-151.

[20] المصدر نفسه : 125/2.

[21] قوله هدّي : أي قسمي هديّتك و ما عندك و لا تذخري ينظر في الديوان : 125/2.

[22] شعر الهذليين في العصرين الجاهلي و الإسلام ، ص 374.

3-و شعر أبي خراش -من حيث الموضوع- واضح لا لبس فيه، فهو كغيره من الذؤبان الشعراء لم تتهيأ له الفرصة للإطالة و بالتالي الإستطراد من موضوع لآخر، فوحدة الموضوع كانت هي الأخرى ميزة شعره.

4- وكما سبق الذكر فأبو خراش لم يكن يكلّف نفسه شيئا، بل يكتفي بنقل وذكر ما تلقنه له الطبيعة و الحياة [23]، مجسدا بذلك الواقعية بأجلى معانيها ، أجل فشعره لا يخرج من دائرة الواقعية الّتي اعتمدها معظم شعراء هذيل .

فشعره إضافة إلى كونه مدرسة فنية راقية هو أيضا سجلّ لحقائق و تجارب صادقة عاشها بكلّ جوارحه على نحوه ما جاء في إحدى قصائده [24] الّتي يروي فيها واحدة من مغامراته [25]:

رَفُوني ** وَ قَالُوا يَا خُوَيْلِدُ لاَ تُرَعْ :. فَقُلْتُ وَ أَنْكَرْتُ الوُجُوهَ هُمْ هُمُ
فَعَدَّيْتُ شَيْئاً وَ الدَّرِيس ** كَأَنَّمَا :. يُزَعْزِعُهُ وِرد ** مِنَ المُومِ مُرْدِمُ **

****

فَوَاللهِ مَا رَبْدَاءُ ** أَوْ عِلْجُ ** عَانَةٍ :. أَقَبُّ ** وَ مَا إِنْ تَيْسُ رَبْلٍ مُصَمِّمُ **

فأبو خراش يصف لنا فراره و سرعته طلبا للنّجاة، حتّى أن ثيابه من شدّة اهتزازها جعلته كمن به حمّى، و كلّ الصّور الّتي نقلها إلينا أثناء وصف إفلاته من الطبيعة المحيطة به (الرّبداء، العلج، التّيس، الربل....) ، لا سيّما أنّها تحمل الكثير من الدقة في التصوير و لا غرابة فهذه ميزة أخرى تطبع شعر أبي خراش.

---

[23] شعر الهذليين: ص375.

[24] ديوان الهذليين : 144/2.

[25] في هذه القصيدة يروي إلاته من قوم كانوا يطاردونه ، ينظر في الديوان : 142/2-143.

** رفوني : أي سكنوني .

** الدّريس : الثّوب الخلق.

** ورد : وعكة صحية، و المومِ الحمى

** مردم : ملازم .

** ربداء : نعامة سوداء .

** علج عانه : حمار غليظ (و العانة : القطيع).

** أقبّ : خميص البطن (ضامر)

** الرّبل : نبات ينبت قبل الشّتاء، ينظر في الديوان : 144/2-145.

5- تباين مميزات شعر الهذليّين لا سيما "القصّة الشّعرية" الّتي ميّزت شعرهم عن سائر شعر العرب، جعلت النّقاد يتتبعون شعر ابي خراش ليخلصوا إلى أمر هام مفاده : أنّ القصة تحوّلت عنده إلى حديث عن مغامراته و غزواته [26]، إذ لا تقابلنا في الديوان سوى قصّتين واحدة عن ريب الدّهر في قصيدته الّتي يرثي فيها أخاه عروة، و الثانية في رثائه لزهير بن عجوة.

[26] شعر الهذليين : ص376.

ثانيا : صور البيان في شعر أبي خراش

لا يختلف أحد في القول بأنّ شعر الهذليين – بما فيهم أبو خراش– كان من أغزر المواد الّتي اعتمد عليها العلماء في ضبط اللغة و وضع قواعدها، فمثل هذه الأشعار المتقنة والمحكمة و المستوفاة للمعاني، الحسنة للوصف، السّلسة الألفاظ [27]، لا يمكن أن تخلو من صور بيانية جميلة تعكس رقّة نفس أصحابها و حسّهم الفنّي العالي .

فأحسن الشّعر – كما وصفه ابن طباطبا– ما توضع فيه كلّ كلمة موضعها، وينسّق فيها الكلام صدقا لا كذب فيه و حقيقة لا مجاز فيه[28].

و إنّي حينما أتحدّث عن الحقيقة أريد التّأكيد على استعانة أبي خراش في شعره بصور حقيقية و واقعية، عمادها الوصف الدّقيق و التمثيل الرّائع، وهو الأمر الّذي شدّ انتباهي وكان أحد أهمّ أسباب اختياري لهذه النّصوص الشّعرية دون سواها رغم ما اعترضني من صعوبات لغوية .

و مهما يكن لا يمكن الآن الجزم بشيء و لا إصدار أحكام سابقة حول مدى استغلال الصور البيانية من حيث الكمّ أو الطّريقة ، فكلّ ما سيأتي من صور في هذا الصّدد يمثّل ما أمكنني جمعه و تحليله معتمدة بالدّرجة الأولى على الدّيوان.

1– التشبيه :

لا يخفى على أحد أنّ التّشبيه هو الأصل الأوّل في علم البيان، لذلك يعدّ امتلاك هذه المهارة ضربا من السّحر البياني لا يحظى بها إلاّ فنّان عذب الكلام و رقيق الحسّ. [29]

---

[27] عيار الشعر : ص146.

[28] المصدر نفسه : 168-169.

[29] مفتاح العلوم للإمام أبي يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي (ت626هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،د.ت، ط1: ص141.

و التّشبيه يقوم عادة على ركنين أساسيين و هما المشبه و المشبّه بـــه الّذيـــن تربـــط بينهما أداة و يشتركان في صفة (وجه الشبه)[30]، و على أساس هذه العناصر وضـــع علمـــاء البلاغة أقساما خاصّة بالتّشبيه :

- أقسام باعتبار طرفي التّشبيه **
- أقسام باعتبار الأداة. **
- أقسام باعتبار وجه الشبه **.

وتجد الإشارة أنّني ركّزت في بحثي على استقراء الشّواهد و إحصائها دون الخـــوض في الأنواع و الأقسام لأنّ ذلك أمر يطول شرحه.

و المهمّ بعد ذلك أن الدّارس لشعر أبي خراش يلتمس الكثي من الخصائص الأدائيـــة وأظهرها التّشبيه:

* **التّشبيه المفصّل :**

وهو كل تشبيه استوفى أركانه ، بحيث يكون وجه الشّبه فيه مفصّلا و واضحا [31].

من هذا القبيل جاء في شعر أبي خراش الكثير من الشّواهد على نحو قوله في وصـــف الأتن[32]:

وَ ظَلَّ لَهَا يَوْمٌ كَـــأَنَّ أُوَارَهُ** .: ذَكَا النَّارِ** مِنْ فَيْحِ** الفُرُوغِ طَوِيلُ

فالبيت جزء من مقطع يصف فيه الشّاعر حالة حمار وحش وهو يترقّب الصياد خائفا، في يوم حارّ، فيشبّه وهج شمه بفرغ الدّلو، ووجه الشّبه هنا الطّول، فهذا الوهج كمثل فـــرغ

---

[30] ينظر في مفتاح العلوم : ص141-151.

** التّشبيه باعتبار الطرفين له عدة وجوه كأن يقع بين حسين أو عقلين أو مختلفين (عقلي و حسّي)، ينظر في: علم البيان لعبد العزيـــز عتيـــق ، دار النهضة العربية، بيروت، د.ت، ط1، ص70.

** التشبيه باعتبار الأداة و منه : المرسل (ما تذكر فيه الأداة)، و المؤكّد (ما تحذف منه الأداة)، ينظر في : علم البيان : ص90.

** و التّشبيه باعتبار وجه الشبه : التمثيل ، و غيّر تمثيل، مفصل و مجمل قريب و بعيد، ينظر في المرجع نفسه: ص89.

[31] علم البيان، ص89.

[32] ديوان الهذليين : 119/2.

** الأُوَارُ : الوهج.

** ذكا النّار : هو اشتعالها

** فيح الفروغ : مجراه الذي يجري منه، ينظر في الديوان: 119/2.

الدلو طويل لا يكاد ينقضي من طوله و شدّته. و ربّما طول ألسنة الوهج راجع إلى طـــول اليوم في حدّ ذاته .

و يسترسل أبو خراش في وصف الأتن إلى أن يقول : [33]

كَأَنَّ النَّضِي** بَعْدَمَا طَاشَ مَارِقًا** ∴ وَرَاءَ يَـــدَيْهِ بِالخَلاَءِ طَمِيلُ

وهو بذلك يصف بدقّة انطلاق السّهم، و مروره السّريع الّذي جعله يشبه الطّميـــل، أي الشيء المطلي ، و ربّما هو يقصد بالطميل الدم. في انطلاقـــه و الرّابـــط بـــين السّـــهم والطّميل هنا هو المرور (مارقا)، ثمّ ينهي الشّاعر قصيدته الأولى باستحضار و صورة أرنـــب يفرّ من صقر يلاحقه فيقول : [34]

رَأَى أَرْنَبًا مِنْ دُونِهَا غَوْلُ** أَشْرَجٍ** ∴ بَـــعِيدٌ عَـــلَيْهِنَّ السَّرَابُ يَزُولُ**

تَـــوَائِلُ** مِنْهُ بِالضَّـــرَّاءِ** كَأَنَّهَا ∴ سَفَاةٌ** لَهَـــا فَوْقَ التُّرَابِ زَلِيلُ

فهو يريد القول : من خفّتها كأنّها سفاة، تزلّ فوق الأرض ، وجه الشّبه هنا الزّليـــل (المرور السريع) على الأرض.

و في صورة أخرى يعرض أبو خراش لإحدى مغامراته ، فيصف سيره ليلا و الهيئة الّتي كان عليها فيقول : [35]

وَ لَيْلَةِ دَجْنٍ** مِنْ جُمَادَى سَرَيْتُهَا ∴ إِذَا مَا اسْتَهَلَّتْ وَ هِيَ سَاجِيَةٌ تَهْمِي**

---

[33] ديوان الهذليين : 121/21.

** النضيّ : يقصد به السهم .

** مارقا : مارا .

[34] ديوان الهذليين : 122/2.

** غول : أي ذات بعد .

** أشرج : شقوق تكون على الأرض .

** يزول : يتحرّك عليهنّ (الشقوق) الشراك.

** توائل : تحاول النّجاة .

** الضراء : ما يوازي خلفه من شجر و نحوه.

** السّفاة : شوكة، ينظر في الديوان: 122/2.

[35] ديوان الهذليين : 130/2-133.

** الدجن : إلباس الغيم

** تهمي : تسيل ، ينظر في الديوان: 130/2.

إلى أن يقول :

وَنَعْلٍ كَأَشْلاَءِ السُّمَانَى نَبَذْتُهَا ∴ خِلاَفَ نَدَى مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ أَوْ رِهْمِ**

فهو يشبه نعله الّذي خذم و أصبح باليا ببقايا طائر السمانى المعروف، و إن كان هذا التشبيه غريبا نوعا ما، في رأي الدكتور أحمد كمال زكي[36]، و الصّفة المشتركة هنا هي التمزق.

وبما أنّ حياة شاعرنا كانت عبارة عن مغامرات و معارك لا تتوقف، فهو لا ينفكّ يشبه نفسه بما يحيط به في بيئته البدوية من وحوش و ضواري من ذلك قوله وهو يصف نفسه في ساحة القتال: [37]

كَأَنِّي إِذَا عَدُوا ضَمَّنْتُ** بِزَيٍّ ∴ مِنَ العُقْبَانِ خَائِتَةٍ** طَلُوبَا

فالرّجل بما يحمله من سلاح أصبح كالعقاب المنقضّ على فريسته إذ الصّفة المشتركة بينهما السّرعة في طلب الفريسة (طلوبا).

و غير بعيد عن ميدان النزال و المباغة و التّرقّب يأخذنا أبو خراش إلى إحدى مناوراته ضدّ طالبيه من بني الدّيل ، فيصف سرعة إفلاته و خفته قائلا : [38]

رَفُونِي وَ قَالُوا يَا خُوَيْلِدُ لاَ تُرَعْ ∴ فَقُلْتُ وَ أَنْكَرْتُ الوُجُوهَ هُمُ هُمُ
فَعَدَّيْتُ شَيْئاً وَ الدَّرِيسُ كَأَنَّمَا ∴ يُزَعْزِعُهُ وِرْدٌ مِنَ المُومِ مُرْدِمُ

و البيتان سبق شرحهما، غير أنّ ما يميّزهما هو تلك الصّورة الجميلة الّتي قرن فيها أبو خراش يسن أشياء أقل ما يقال عنها أنها متنافرة شكلا و مضمونا، فهو يجري – طلبا للنجاة– بسرعة خاطفة اهتزت معها ثيابه، فجعلته كمن به حمّى . والظاهر أنّ الصّفة المشتركة بين المحموم و الهارب هي الإرتعاش و اهتزاز الثّوب.

** الرّهم : المطر الضّعيف ، ينظر في الديوان: 131/2.

[36] شعر الهذليين : ص376.

[37] ديوان الهذليين : 133/2.

** خائتة : منقضة ، ينظر في المصدر نفسه : 133/2.

** طلوبا : يطلب الصّيد .

[38] ديوان الهذليين : 144/2.

بعد رحلة طويلة من الصّراع و الغزو يقف الشاعر ليخاطب زوجته بنبرة فيها الكثير من الورع و التعقل : [39]

فَلَيْسَ كَعَهْدِ الدَّارِيَا أُمَّ مَالِكٍ ∴ وَلَكِنْ أَحَاطَتْ بالرِّقَابِ وَ السَّلاَسِلِ
وَ عَادَ الفَتَى كَالكَهْلِ لَيْسَ بِقَائِلٍ ∴ سِوَى العَدْلَ شَيْئًا فَاسْتَرَاحَ العَوَاذِلُ

و البيتان واضحان فالفتى بدخول الإسلام أصبح كالكهل في الحكمة و الوعظ، ولا عجب فتلك هي تعاليم ديننا الحنيف، هو الأمر الّذي أراد أبو خراش التلميح إليه فأجاد .

لكن رغم إسلامه إلاّ أنّه بقي يتجرّع مرارة فراق أحبّته و رفاق دربه و يذكرهم في مراثيه، على نحو ما جاء في قصيدته الّتي يرثي فيها صديقه "خالد بن زهير" الّذي قتل و يصف ما آلت غليه حالته بعده قائلا : [40]

أَرِقْتُ لِهَمٍّ ضَافَنِي بَعْدَ هَجْعَةٍ ∴ عَلَى خَالِدٍ فَالعَيْنُ دَائِمَةُ السَّجَمْ

****

شَدِيدُ الأَسَى بَادِي الشُّحُوبِ كَأَنَّنِي ∴ أَخُو جِنَّةٍ يَعْتَادُهُ الخَبْلُ** فِي الجِسْمِ

فهو يريد تصوير حالة الحزن الّتي يعيشها و الّتي جعلته يشبه المجانين في الخبل و المرض، وذلك لأنّ الحزين يشترك مع المجنون فيما يصيبه من فساد العقل و علّة الجسد .

ثمّ إنّه بعد هذه المقدمة الحزينة، يقف ليسترجع خصال هذا الصّاحب فيقول : [41]

أَشَمُّ كَنَصْلِ السَّيْفِ يَرْتَاحُ لِلنَّدَى ∴ بَعِيدًا مِنَ الآفَاتِ وَ الخُلُقِ الوَخْمِ

إنّ خالدا هذا بعيد عن الآفات لا علّة في خلقه ، و مثله نصل السّيف بعيد عن موضع الضرب، و هذه صورة أخرى رائعة زاوج فيها أبو خراش بين متناقضين (طول النصل والتعفف)، ثمّ إنّه يواصل تقليب صفحات الماضي ليذكر فضل بعض أصحابه فيقول شاكرا كرم رجل يقال له دبيّة السّلمى* : [42]

كَأَبِي** الرِّمَادِ عَظِيمُ القَدْرِ جَفْنَتُهُ ∴ عِنْدَ الشِّتَاءِ كَحَوْضِ المَنْهَلِ اللَّقِفِ

---

[39] ديوان الهذليين: 150/2.

[40] المصدر نفسه : 151/2-152.

** الخبل : فساد العقل و الجسم ، ينظر في الديوان : 152/2.

[41] ديوان الهذليين : 153/2.

* دبية السلمى -كما جاء في الديوان - كان سادنا لعزّى غطفان ، ينظر في الديوان : 155/2.

[42] ديوان الهذليين : 156/2.

** كأبي الرماد : عظيم الرّماد، ينظر في المصدر نفسه .

فهذا الرّجل كما هو واضح كريم حتى أنّ جفنته (إناءه) بلي و اصبح قديما يكاد يتكسّر (ينهار) كحوض الإبل الّذي يشرف على الإنهيار من كثرة مرتاديه من الإبل العطاش.

و أبو خراش ككل شعراء العرب جعل من شعره سجلا حافلا بأحداث تروي أطوار حياته و فصولها لا سيما في الجاهلية ، و لنقف عند بعض أبياته الّتي يتحدّث فيها عن حياة الصعلكة فيقول : [43]

لَسْتُ لِمُرَّةٍ إنْ لَمْ أُوفِ مَرْقَبَةً ∴ يَبْدُو لِي الحَرْفُ مِنْهَا وَالمَقَاضِيبُ**

فِي ذَاتِ رَيْدٍ** كَذَلْقِ** الفَاسِ مُشْرِفَةٍ ∴ طَرِيقُهَا سَرْبٌ** بِالنَّاسِ دُعْبُوبُ**

فهو على عادة الذّؤبان يعتلي مرقبة على جبل و يصف نتوءها فيشبّهه بحدّ الفأس (كذلق الفأس) في العلوّ و الإشراف .

فالشّاعر لم يكن وحده على المرقبة ، بل كان إلى جانبه صاحب وصفه بقوله : [44]

يَظَلُّ فِي رَأْسِهَا كَأَنَّهُ زُلَمٌ** ∴ مِنَ القِدَاحِ بِهِ ضَرْسٌ وَ تَعْقِيبُ

و هذ الصاحب يشبه القدح في وقوفه ، ويبدو أنّ الصفة الّتي تجمعهما هي الإنتصاب ذلك أنّ ميزة القدح المذكور الفوز لأنّه قد وضعت عليه علامة ضرس تؤهله [45].

فهذا الرّجل حريص ويقظ دائما و بارع في ترقّب القوافل و التربص بها و لاعجب في ذلك فهو من الصعاليك .

و في موضع آخر يعرض أبو خراش لموقف إنساني يعاتب فيه رجلا من قومه أقدم على قتل ضيف له، وقد كان غلاما فتيّا فقال : [46]

كَأَنَّ الغُلاَمَ الحَنْظَلِيَّ أَجَارَهُ ∴ عُمَانِيَّةٌ قَدْ عَمَّ مَفْرَقَهَا القَمْلُ

---

[43] ديوان الهذليين : 159/2.

** المقاضيب : مواضع القت (علف الدواب).

** ريد : حرف ناتئ من الجبل.

** ذلق الفأس : طرف الفأس.

** طريقها سرب : النّاس فيه يتسرّب بعضهم في إثر بعض (ضيق).

** دعبوب : موطوء ، ينظر في الديوان : 159/2.

[44] ديوان الهذليين : 161/2.

** الزّلم : قدح به ضرس (علامة) يوثر فيه، المصدر نفسه .

[45] في الجاهلية انتشر القمار و عدة أعاب من هذا القبيل كرمي القداح والمراهنة عليها.

[46] ديوان الهذليين : 164/2.

أَبَاتَ عَلَى مِقْرَاكَ ثُمَّ قَتَلْتَهُ ∴ عَلَى غَيْرِ ذَنْبٍ ذَاكَ جَدَّ بِكَ الثُّكْلُ

فالفتى كما وصفه الشّاعر يشبه امرأة عمانية يملأ القمل مفرقها .

و يخاطب أبو خراش ابنه خراشا في المقطوعة ما قبل الأخيرة من الديوان و يناشده بالرجوع إلى وطنه فيقول [47]:

أَلاَ فَاعْلَمْ خِرَاشُ بِأَنَّ خَيْرَ الـ ∴ مُهَاجِرِ بَعْدَ هِجْرَتِه زَهِيدُ

فَإِنَّكَ وَابْتِغَاءَ البِرِّ بَعْدِي ∴ كَمَخْضُوبِ اللِّبَانِ وَ لاَ يَصِيدُ

و البيتان معناهما واضح بما يكفي، غير أنّ الشّاعر بغية بلوغ غايته يضرب لابنه مثلا في البيت الثاني مفاده : إنّك يا خراش برحيلك طلبا للجهاد - كالكلب الّي يلطّخ حلقه وصدره فيرى النّاس أنّه قد صاد وهو ربّما لم يصد شيئا، فهو يريد تذكيره ببرّه والإحسان إليه قبل أيّ عمل طيّب.

ووجه الشّبه هنا - كما يبدو - هو الجري وراء الأوهام دون بلوغ الهدف المنشود (لا يصيد).

*التشبيه المجمل :

وبقصد به التّشبيه الّذي حذف منه وجه الشّبه، بحيث يكون خفيّا أحيانا فلا يدركه إلاّ من تميّز بالذّكاء و سرعة البديهية.[48]

وشعر ابي خراش لم يخل من مثل هذه التشبيهات الّتي تتميّز باختفاء وجه فيها أو غموضه أحيانا كثيرة، من ذلك قوله وهو يصف حمار الوحش المترقّب لخطوات الصياد :[49]

يَظَلُّ عَلَى البُرْزِ اليَفَاعِ** كَأَنَّهُ ∴ مِنَ الغَارِ** وَ الخَوْفِ المُحِمِّ وَبِيلُ**

هذا الحمار يقف على أرض بارزة يراقب أشجار الغار الّتي تبدو له كأشخاص متستّرين.

---

[47] ديوان الهذليين : 171/2.

[48] علم البيان : ص90.

[49] ديوان الهذليين : 118/2.

** البرز اليفاع : ما ارتفع من الأرض و برز للشّمس ، ينظر في الديوان : 118/2.

** الغار : أشجار عظيمة أوراقها طويلة .

** وبيل : عصا غليظة و شديدة. ينظر في المصدر نفسه: 119/2.

و أبو خراش صوّر لنا خوف هذا الحيوان الّذي جعله ينتصب على قوائمه دون حراك حتّى بدا كأنّه عصا غليظة (وبيل).

و في القصيدة ذاتها يصف الشّاعر غروب الشّمس بصورة رائعة يعتمد فيها على دقّة الملاحظة فيقول : [50]

فَلَمَّا رَأَيْنَ الشَّمْسَ صَارَتْ كَأَنَّهَا ∴ فُوَيْقَ البَضِيعِ** فِي الشُّعَاعِ خَمِيلُ

وهو يريد القول : صارت الشّمس حين دنت للغروب كأنّها قطيفة (خمل) ، والعلاقة بين صورة الغروب و الخمل لا تبدو واضحة، ذلك أنّ عيني الشّاعر وحدها لمحت هذا الترابط و التّشابه .

ويواصل الشّاعر وصفه لمنظر شعاع الشمس و ما يحدثه فيقول : [51]

فَهَيَّجَهَا وَ إِنْشَامَ** نَقْعًا** كَأَنَّهُ ∴ إِذْ لَفَّهَا ثُمَّ اسْتَمَرَّ سَحِيلُ***

و الصّورة كما جاءت تشبه الحمار في التفافه بالسحيل أي الخيط الّذي لم يبرم بعد، وهذا التّشبيه في حقيقة الأمر غير منطقيّ، إذ المعقول تشبيه الغبار بالخيط و هذه القضيّة أشار إليها شارح الدّيوان (دار الكتب المصرية).

و لنقف عند قوله في حديثه عن كيد الدهر له : [52]

وَ لاَ أَمْعَرَ السَّاقَيْنِ ظَلَّ كَأَنَّهُ ∴ عَلَى مُحَزْئِلاَتِ** الإِكَامِ نَصِيلُ***

فأمعر السّاقين – كما جاء في الديوان – يقصد به الصّقر، وهو إذن يشبهه بالنصيل أي الحجر الموجود أعلى البئر.

---

[50] ديوان الهذليين : 119/2.

** البضيع : الجزيرة في البحر ، ينظر في المصدر نفسه.

[51] ديوان الهذليين : 119/2.

** إنشام : دخل فيه

** النّقع : الغبار

*** السّحيل : خيط لم يبرم ، ينظر في الديوان : 120/2.

[52] ديوان الهذليين : 121/2.

** المحزئل : المشرف و المجتمع.

** النصيل : حجر يجعل في البئر، ينظر في الديوان : 123/2.

و في رثاء إخوته يسوقفنا قوله مهددا أعداؤه بأخذ الثأر : [53]

وَقَدْ أَمِنُونِي وَ اطْمَأَنَّتْ نُفُوسُهُمْ ∴ وَلَمْ يَعْلَمُوا كُلَّ الَّذِي هُوَ دَاخِلِي

فَمَنْ كَانَ يَرْجُو الصُّلْحَ مِنْهُمْ فَإِنَّهُ ∴ كَأَحْمَرِ عَادٍ وَ كُلَيْبٍ لِوَائِلِ

فالشّاعر هنا يؤكّد وجده وحزنه على إخوته، كما يشبه قتلاه بأحمر ثمود الذي عقر النّاقة ، و كليب وائل الّذي كان موته شؤما ظلّ يطارد قومه لسنوات.

وفي حديثه عن زوجته يصفها مبينا شناعة إنكارها له فيقول : [54]

فَجَاءَتْ كَخَاصِي العِيرِ لَمْ تَحْلَ جَاجَةً **

وَ لاَ عَاجَةً** مِنْهَا تَلُوحُ عَلَى وَشْمِ

فهي كخاصي العير جاءت منكسرة، و خاصي العير يستحي مما صنع، و هي إضافة إلى ذلك لم تحل بشيء أي لم تتزين بشيء من الحلي.

و في معرض حديثه عن إحدى مغامراته يصف أبو خراش منظر الجبال ليلا فيقول:[55]

إِذَا لَمْ يُنَازِعْ القَوْمَ ذَا النُّهَى ∴ وَ بَلَّدَتْ ** الأَعْلاَمُ بِاللَّيْلِ كَالأُكَمِ**

فهو يريد القول أنّ القوم سلّموا أمرهم لذي النّهي أي الدليل الذي يرشدهم خاصة بحلول الظّلام الذي أصبحت الجبال ترى فيه كالأكم ووجه الشبه - وإن لم ذكر- هو الشكل والحجم.

و يقف أبو خراش ليعبر عن حزنه على فراق ابنه خراش فيصف دموع عبده "كليب" قائلا :[56]

يُنَادِيهِ لِيُغْبِقَهُ** كُلَيْبٌ ∴ وَ لاَ يَأْتِي لَقَدْ سَفَهَ الوَلِيدُ

فَرَدَّ إِنَاءَهُ لاَ شَيْءَ فِيهِ ∴ كَأَنَّ دُمُوعَ عَيْنِهِ الفَرِيدُ**

---

[53] ديوان الهذليين :124/2.

[54] نفسه : 129/2.

** جاجة : خرزة من ردئ الخرز، ينظر في الديوان : 129/2-130.

** العاجة : ذبلة و الذبل شيء كالعاج يتخذ منه السوار.

[55] ديوان الهذليين : 131/2.

** بلّدت : لزقت بالأرض

** الأكم فهي حبات الفطر الصغيرة ، ينظر في المصدر نفسه .

[56] ديوان الهذليين : 170/2.

** يغبقه : يسقيه اللبن .

** الفريد : جمع فريدة، و هي الشّذر من فضّة كاللؤلؤ و نظيره، ينظر في الديوان : 170/2.

كيلب يتصور وجود خراش فيحمل إناء اللّبن و بقصده لكنه سرعان ما يتذكر غيابه، فيعود و إناؤه فارغ و يذرف دموعا تشبه حبّات الفريد (شذرات اللّؤلؤ) و الأكيد انّ الصفة المشتركة هنا هي اللّمعان.

* **تشبيهات أخرى :**

هذا الجزء من الدراسة خصصته لمجموعة من شواهد التّشبيه التي تدخل ضمن أقسام أخرى، و لمجموعة ثانية تميزت بالغرابة في الربط بين الكثير من المتناقضات.

و لنبدأ بالوقوف على أحد أبيات قصيدة أبي الخراش الأولى - في الديوان- و الّتي يقول فيها : [57]

أَرَى الدَّهْرَ لاَ يَبْقَى عَلَى حَدَثَانِهِ ∴ أَقَبَّ تَبَارِيهِ جَدَائِدُ حُولُ

وفي هذه الصورة يمثل الشاعر الزمن (الدهر) بالأقب، إذ يقول : إنّ الدّهر بأحداثه يتحرك سائرا و ليس كأنثى الحمار (الأقب) المتميزة عن غيرها بجفاف لبنها (جدائد) لأنها لم تحمل من عامها الأول (حول) و لتبقى هذه الصورة رائعة وثابتة في وجدان القارئ استعان أبو خراش بتشبيه بليغ لا مثيل له ربط فيه حركة الزمن بأنثى أقب عاقر.

ويصف حنين زوجته إلى أهلها ، فيقول : [58]

إِذَا حَنَّتْ لِلْهَوَى حَنَّ جَوْفُهَا ∴ كَجَوْفِ البَعِيرِ قَلْبُهَا غَيْرَ ذِي عَزْمِ

وهو يريد القول : إذا حنّت إلى أهلها و بلدها فتحت فمها مثلما يفعل البعير.

وهذه صورة أخرى غريبة تجمع بين عنصرين متنافرين : الحنين إلى الأهل (الزوجة) ، و الحنين إلى الزاد (البعير) وما يجمع بينهما هو الحركة فكلاهما غير ذي عزم أي غير ساكن، فالإبل إذا جاعت اضطربت ، و المشتاق يضطرب باضطراب قلبه.

وفي القصيدة ذاتها يلوم أبو خراش زوجته على احتقارها فيقول : [59]

أَبَعْدَ بَلاَئِي ضَلَّت البَيْتَ مِنْ عَمَى ∴ تُحِبُّ فِرَاقِي أَوْ يَحِلُّ لَهَا شَتْمِي

---

[57] ديوان الهذليين : 117/2.

[58] المصدر نفسه : 126/2.

[59] المصدر نفسه : 126/2.

فهو يدعو عليها بقوله : أعمى الله بصرها حتى لا تهتدي إلى البيت، ثم يسترسل في لومه لها فيصف خصاله و يذكرها بفضائله إلى أ ن يقول : [60]

رَأَتْ رَجُلاً قَدْ لَوَّحَتْهُ المَخَامِصُ ∴ وَ طَافَتْ بِرِنَّانِ المَعَدَّيْنِ** ذِي شَحْمِ
غَذِي لِقَاحٍ لاَ يَزَالُ كَأَنَّهُ ∴ حَمِيتٌ*** بِدَبْغٍ عَظْمِهِ غَيْرَ ذِي حَجْمِ

وهو يريد القول : أنها لما رأته قد هرم و أصبح ضعيفا طافت بشاب صلب الجانبين (رنّان المعدّين)، كأنّه في قوته حميت بمعنى أنه مثل : النّحي أي الإناء و الزقّ المتين [61].

ودقّة الملاحظة ليست بالأمر الغريب على أبي خراش فهو بدوي حديد اللّحظ، ترى عيناه ، فيمعن لسانه في الوصف ليخرج إلى الوجود صورا شعرية رائعة على نحو ما جاء في قوله يصف القبر[62] :

لَعَلَّكَ نَافِعِي يَا عُرْوَ يَوْمًا ∴ إِذَا جَاوَرْتُ مِنْ تَحْتِ القُبُورِ
إِذَا رَاحُوا سِوَايَ وَ أَسْلَمُونِي ∴ لِخَشْنَاءِ الحِجَارَةِ كَالبَعِيرِ

فهو يقصد بخشناء الحجارة الحفرة، ويريد القول أنّهم إذا ذهبوا إلى مكاني (راحوا سواي) بالحفرة أي القبر الذي يشبه ظهره بعيرا باركا .

و غير بعيد عن الطبيعة التي عوّدنا أبو خراش على نقل كل مناظرها بدقة و أمانة يصف ثورا فيقول: [63]

يَظَلُّ عَلَى البَرْزِ اليَفَاعِ كَأَنَّهُ ∴ طِرَافٌ*** رَسَتْ**** أَوْتَادُهُ عِنْدَ نَازِلِ

فالثّور في وقوفه و انتصابه على أرض بارزة كالبيت في ثباته (الطّراف) و يبدو أنّ الصّفة المشتركة بينهما إضافة إلى الثّبات الضّخامة .

---

[60] ديوان الهذليين: 128/2.

** معديّ الإنسان : جنباهت أي ما تحت العضد

*** الحميت : النحي الذي لم يستعمل (الإناء المتين).

[61] تاج العروس من جواهر القاموس للسيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي ـــ تحقيق عتبد العليم الطحاوي ، مطبعةت حكومة الكويت (التراث العربي)، ط1، عام 1287هـ- 1968م : 497/4.

[62] ديوان الهذليين : 136/2.

[63] المصدر نفسه : 139/2.

*** طراف : بيت من أدم.

**** رست : ثبتت، ينظر في المصدر نفسه.

و يصف أبو خراش فراره من بني الديل في إحدى مغمراته فيمثل نفسه بغزال يركب رأسه (عنادا) و يمضي مسرعا [64] فيقول : [65]

يَطِيحُ** إِذَا الشَّعْرَاءُ** صَاتَتْ بِجَنْبِهِ ∴ كَمَا طَاحَ قَدَحُ الْمُسْتَفِيضِ الْمُوَشَّمِ

و هو يمثل نفسه بالغزال الذّي إذا لسعه الذّباب يمضي مسرعا (يطيح) كالقدح المستفيض ، أي القدح الذي يفيض بالقداح و يضرب بها، فكلاهما (الغزال و القدح) يتميّز بالسرعة .

ويواصل وصفه إلى أن يقول : [66]

كَأَنَّ الْمُلاَءَ الْمَحْضَ خَلْفَ ذِرَاعِهِ ∴ صُرَاحِيُّهِ** و الآخِنِيُّ** الْمَتَحَّمُ**

فالشّاعر يجري بسرعة كبيرة اهتزّ معها ثوبه حتى أنّ الناظر إليه لا يستطيع التمييز بين ألوانه (الثوب) ، فالأبيض الخالص (المحض) من شدّة اهتزازه أصبح يبدو كالبردة المخططة التي يرتديها أبو خراش ثم يقول : [67]

تَرَاهُ وَقَدْ فَاتَ الرُّمَاةَ كَأَنَّهُ ∴ أَمَامَ الْكِلاَبِ مُصْغِي الْخَدِّ أَصْلَمُ

فهذا الغزال مرّ مسرعا، لكنه كان يصغي بين الحين والآخر إلى كلاب الصّيد التي تتعقبه ، و هو من شدّة ما صرّ أذنيه (أي سوّاهما للاستماع) أصبح يشبه حيوانا أصلم، والأصلم كما هو معروف : المستأصل الأذنين. و من أبدع تصويرات أبي خراش و أدقّها على الإطلاق ما جاء في قوله وهو يصف ما تكسّر تحت حوافر فرسه من حصى و نحوه [68]:

كَأَنَّ الْمَرْوَ** بَيْنَهُمَا** إِذَا مَا ∴ أَصَابَ الْوَعْثُ مُنْتَقِفًا** هَبِيدُ

---

[64] هذه المقطوعة -بما فيها البيت – سبق تناولها ، ينظر في الديوان : 145/2 .

[65] ديوان الهذليين : 146/2.

** يطيح : يشرف و في البيت جاءت بعنف : يسرع .

** الشّعراء: ذباب يلسع ، ينظر في المصدر نفسه : 146/2.

[66] ديوان الهذليين :146/2.

** الصّراحي : الأبيض .

** الآخني : ثوب مخطط .

** المتحم : بردة يمانية، ينظر في المصدر نفسه : 146/2.

[67] ديوان الهذليين :146/2.

[68] المصدر نفسه : 164/2.

** المرو : حجارة بيضاء

** هو يقصد بينهما : بن الفرس و الحمار .

** المنتقف : هو الحنظل و ما أخرج منه، ينظر في المصدر نفسه : 164/2.

فالشاعر في رحلة صيد يطارد حمار وحش و يشبه المرو و ما تكسّر بحوافر فرسه بحنظل منتقف أي قد أخرج ما فيه، و هذه صورة أخرى تبرز أهمّ صفات أبي خراش كشاعر بدوي صافي الذّهن دقيق الملاحظة حادّ البصر متيقّظ الحواس : وفي مقطوعة أخرى يذكر شهامة و نجدة رجل يقال له سلمى بن معقل أحد بني صاهلة و يصف تجمع الناس ببيته قائلا: [69]

تَرَى طَالِبِي الحَاجَاتِ يَغْشَوْنَ بَابَهُ ∴ سِرَاعًا كَمَا تَهْوَى إِلَى أَدْمَى النَّحْلُ

كثرة طالبي الحاجات الذين يقصدونه من كلّ صوب جعلت الشاعر يشبه بيت الرجل بموضع يسمى "أدمى" يجتمع فيه النّحل بكثرة . و يذكر أفضال صاحب له يسمى معقل بن خويلد فيقول : [70]

إِذَا جَاءَ خَصْمَ كَالحِفَافِ لُبُوسُهُمْ ∴ سَوَابِغُ ** أَبْدَانٍ وَ رِيطٌ مُعَضَّدُ

و "الحفاف" ورد حولها اختلاف في الديوان، فمعناها : كلّ شيء مستدير، غير انّ الشارح يشير إلى أنّ السكري فسّرها في البيت على أنّها جبل. و هذا هو الصّواب في اعتقادي ، فالصّحيح هو تشبيه الخصم بالجبل في العظمة و القوّة .

ومجمل القول أنّ أبا خراش سار على هدى من سبقه من شعراء قبيلته في ميلهم إلى التّمثيل و التّشبيه بدليل الحشد الهائل لصور التشبيه التي تمّ استقراؤها فيما سبق.

و مع هذا فشعره لم يخل تماما من صور بيانية أخرى تفنن في نقلها من واقعه في مزاوجة رائعة بين الخيال و الحقيقة.

2- الإستعارة :

و هذا ضرب آخر من المجاز يتم فيه تحويل المعنى من موضعه الأصلي إلى موضع آخر[71]. بمعنى "تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامة "[72]. و هذا لا يتأتّى إلاّ بوجود علاقة مشابهة بين معنى حقيقي و آخر مجازي .

---

[69] ديوان الهذليين : 166/2.

[70] المصدر نفسه : 166/2.

** سوابغ أبدان : يقصد بها الدرع الصغيرة ، ينظر في المصدر نفسه.

[71] علم البيان : ص 66.

[72] البيان و التبيين : 152/1.

و المهمّ لدينا أنّ أبا خراش سلك هذا الطّريق في تشخيص صور تملؤها الحياة والحركة. ولعلّ الشاعر تعمّد في مقطوعاته الإستعانة بأحد أهم ضروب الإستعارة و أوسع أبوابه المتمثل في :

الإستعارة المكنية :

و هي ما حذف فيها المشبه به أو المستعار منه، و رمز له بأحد لوازمه [73] من ذلك ما جاء في قول أبي خراش : [74]

وَ إِنّي لَأُهْدِي القَوْمَ فِي لَيْلَةِ الدُّجَى ∴ وَ أَرْمِي إِذَا مَا قِيلَ :هَلْ مِنْ فَتَى يَرْمِي

فهو هنا يمثل نفسه بسراج و لئن لم يذكره، فإنّه لمّح إليه بإحدى لوازمه "يهدي" ، ومن يهدي الضال في الظلام سوى "السّراج" ؟

و في موضع آخر يقول في صاحب له : [75]

يُقَاتِلُ جُوعَهُمْ بِمُكَلَّلَاتٍ ∴ مِنَ الفُرْنِي ** يَرْعَبُهَا ** الجَمِيلُ **

فهو يشبّه الجوع بالعدوّ الذي يقاتل ، و حذف المشبّه به (الإنسان) وذكر القرينة (يقاتل)، وهو بذلك يريد أن يثني على كرم صديقه دبيّة .

ويرثي صاحبه خالد بن زهير فيقول : [76]

إِذَا ذَكَرَتْهُ العَيْنُ أَغْرَقَهَا البُكَى ∴ وَ تُشْرِقُ مِنْ تَهْمَالِهَا العَيْنُ بِالدَّمِ

و العين في السّطر الأول من البيت كإنسان يتذكّر يحزن فيغرق في النّحيب و البكاء والإستعارة هنا تتمثل في حذف المشبّه به "الإنسان" مع ذكر القرينة المتمثّلة في "ذكرته".

و يسترسل في رثائه فيقول : [77]

وَمَا بَعْدَ أَنْ قَدْ هَدَّنِي الدَّهْرُ هَدَّةً ∴ تَضَالَّ لَهَا جِسْمِي وَرَقَّ لَهَا عَظْمِي

---

[73] علم البيان: ص 175

[74] ديوان الهذليين : 131/2.

[75] المصدر نفسه : 141/2.

** الفرني : خبز غليظ نسب إلى الفرن الذي خبز فيه .

** يرعبها : يملؤها

** الجميل : الشحم المذاب، ينظر في المصدر نفسه : 141/2.

[76] ديوان الهذليين : 151/2.

[77] المصدر نفسه : 151/2.

والبيت واضح المعنى، فالشاعر أصبح فريسة الدّهر الّذي هو أشبه بمعول يهدم البنيان .

و الإستعارة في الشّطر الأول تتجلى في تمثيل الدّهر بالمعول . و إن لم يذكره فقد رمز إليه بقرينة : "هدّني" على سبيل الإستعارة المكنية .

- وفي موضع آخر من القصيدة يقول : [78]

أَتَتْهُ المَنَايَا وَ هُوَ غَضُ شَبَابُهُ ∴ وَ مَا لِلْمَنَايَا مِنْ حِمَى النَّفْسِ مِنْ عَزْمِ **

فقد جعل من المنية شخصا يتعقّب رفيقه خالد وهو في أوح شبابه ، و هـــو بذلـــك حذف المشبه به (الإنسان) و ذكر القرينة "أتته".

والوفاء كما يبدو صفة خالدة بنفس أبي خراش فهو لا ينس رفاقه و لا يتوقّف عـــن ذكرهم ووصف حزنه على فراقهم على نحو ما جاء في قوله يرثي زهير بين عجوة: [79]

وَلاَ وَ الله لاَ أَنْسَى زُهَيْرًا ∴ وَلَوْ كَثُرَ المَرَازِي وَ الفُقُودُ

أَبَى نِسْيَانَهُ فَقْرِي إِلَـــيْهِ ∴ وَ مَشْهَدُهُ إِذَا اربَدَّ الجَلُودُ

فهو بحاجة إليه و لا يقدر على نسيانه رغم تغيّر الزّمن و النّاس من حوله (اربدّ الجلود) و الإستعارة هنا تكمن في تشبيه الحاجة (فقري إليه) بشخص يأبى و يعترض مع حذفه لهـــذا الأخير و ذكر القرينة اللّفظية (يأبى نسيانه).

ومن استعاراته البارزة ما جاء في قوله يتحدّث عن السرعة : [80]

تَذَكَّرْ مَا أَيْنَ المَفَرُّ إِنَّنِي ∴ بِغَرْزِ الَّذِي يُنْجِي مِنَ المَوْتِ مُعْصِمُ

و "تذكّر" هنا - كما جاء في الديوان - لم يتبين إلى أيّ ضمير أسندت، غير أن يهمّنا نحن هنو لفظ "ينجي" الّذي استعير ليخدم المعنى و يعطيه عمقا .

فالعرب تقول : أشدد بغرز فلان أي الزمه لكن أبا خراش يفضّل لزوم السرعة ، وهو بذلك حذف المشبه به (الإنسان) و اكتفى بأحد رموزه : ينجي .

---

[78] ديوان هذليين: 153/2.

** العزم : صبر، المصدر نفسه .

[79] ديوان هذليين : 161/2.

[80] ديوان هذليين : 2/

و أخيرا إنّ هذه الصّور التي مثّلت نموذجا من الشّعر الهذلي ، عكست فعلا بنفس صاحبها أبي خراش فقد كانت تضجّ بالحركة و تحمل من المشاعر مختلفها من حزن و قلق وامتنان أحيانا كثيرة. رغم أنّها جاءت قليلة تعدّ على الأصابع، وبعد لم يكن القصد هو استجلاء خصائصها و أغراضها لأنّ ذلك أمر يطول شرحه .

3-الكناية :

الكناية -كما هو معلوم - ما يفهم من سياق الكلام من غير أن يذكر اسمه صريحا في العبارة [81].

و الثابت أنّ أبا خراش و على عادة كلّ الشعراء استعان ببعض ضروب الكناية :

*** كناية الصفة في شعر أبي خراش :**

وهي تلك التي تطلب بها الصّفة المعنوية كالجود و الكرم و الشّجاعة[82].

و من بين الصفات التي ألمح إليها أبو خراش في شعره :

- الخوف :

فجوّ البادية و ما يحمله من مخاطر و حروب و سعي مستميت للحياة جعلت حياة شاعرنا محفوفة بالمغامرات و المناوشات فهو قبل كلّ شيء صعلوك يسعى في الصّحراء بلا وجهة ، فالخوف و الترقب هما كلّ عدّته لذلك فهو يراه و يحسّ به و يقرؤه في أعماق الدواب و الحيوانات المحيطة به من ذلك قوله يصف أرنبا خائفا : [83]

فَأَهْوَى لَهَا فِي الجَوِّ فَاخْتَلَّ قَلْبُهَا ∴ صُيُودٌ لِحَبَّاتِ القُلُوبِ قَتُولُ

فهو مطارد من نسر يعلم أنّه صيود لحبات القلوب أي الأفئدة ، لذلك اختلّ قلبه خوفا لمّا أهوى بمخالبه ليخطفه ، ولو شاء لقال أن الطّريدة خائفة لكنّه اكتفى بالتّلميح في قوله : "اختلّ قلبها" .

-الحزن و الصّبر :

و تأتي في المراتب الأولى من حياة أبي خراش و قبيلته، فهو فقد كلّ أهله و أصحابه حتى حلّ الإسلام و لم يعد لهذيل كلّها حيّ يطرق و أصبح شاعرنا شيخا يعاني الوحدة والألم

[81] علم البيان : ص201.

[82] مفتاح العلوم : ص170.

[83] ديوان الهذليين : 123/2.

فيناجي ابنه خراش بل و يدخل على أمير المؤمنين ليبثه أحزانه و ما ذاقه من ألم الفراق ، فراق الولد و الأهل، و مما جاء فيه ذكر الحزن مقطوعته التي يرثي فيها إخوته: [84]

فَقَدْتُ بَنِي لُبْنَى فَلَمَّا فَقَدْتُمْ .: صَبَرْتُ وَ لَمْ أَقْطَعْ عَلَيْهِمْ أَبَاجِلِي**

فهو شديد الحزن، لكنّه صابر رغم ألمه لفقده إخوته (بنو لبنى) و يعبّر عن ذلك بقوله: " لم أقطع عليهم أباجلي" أي لم أقطع عروقي عليهم، بمعنى لم أقتل نفسي حزنا عليهم، فقطع الأبجل كناية عن الحزن الشديد و الإمتناع عن ذلك يعبّر عن شدّة الصّبر وقدرة التحمّل.

- **العفّة و الكبرياء :**

و تعدّ جزءا من كيان العربي لا سيما البدوي الأصيل الّذي يعتدّ و يفخر بها بين القبائل على نحو ما جاء في وصف أبي خراش لأخلاق إخوته : [85]

حِسَانُ الوُجُوهِ طَيِّبٌ حُجُزَاتِهِمْ .: كَرِيمٌ نَثَاهُمْ** غَيْرُ لُفٍّ** مَعَازِلُ**

فهؤلاء الإخوة إضافة إلى أنّهم ذووا كرم مشهود به، و خفاف الظلّ (غير لفّ)، هم أيضا يتميّزون بالعفّة وهو الأمر الذي أشار إليه الشاعر بقوله : "طيّب حجزاتهم" لأنّ الحجزة في الأصل تعني معقد السراويل و الإزار. [86]

ولو شاء لعبّر عن "العفّة " صراحة، لكنّه بإيمائه إلى ذلك أعطى البيت بعدا فنيا رائعا.

و أبو خراش عاش فقيرا، حتى أنه لم يكن يرى في الجوع آفة حينما يقول : [87]

وَ إِنِّي لَأَثْوِي الجُوعَ** حَتَّى يَمَلَّنِي .: فَيَذْهَبَ لَمْ يُدَنِّسْ ثِيَابِي وَلَا جَرْمِي**

---

[84] ديوان الهذليين : 123/2.

** الأبجل : عرق في الرّجل، ينظر في المصدر نفسه: 123/2.

[85] ديوان الهذليين : 123/2.

** نثاهم : يقال نثا عليه شيئا: أشاعه و هو يريد أن كرمهم متحدّث عنه.

** لفّ : ثقال فالألفّ : الثّقيل

** معازل : من الأعزل أي من لا سلاح له، و الشاعر يريد التباهي كون إخوته مسلحين، ينظر في ديوان الهذليين : 123/2.

[86] ديوان الهذليين : 123/2.

[87] المصدر نفسه: 127/2.

** أثوي الجوع : أطيل حبسه .

** الجرم : الجسد، ينظر في المصدر نفسه.

فتلك كانت فلسفة رجل محروم لا يملك إلاّ أن يرضى بالواقع، فلسفة فيها الكثير من التسامي [88].

و البيت في مجمله كناية عن السمو و الكبرياء ، بل تتأكّد هذه الصفة في قوله : "فيذهب لم يدنس ثيابي و لا جرمي" فكأنّ الشّكوى و الأنين من شدّة الجوع تسبّبان العار لصاحبها .

-القوّة و الضّعف :

هي من الصّفات التي تحقق معادلة صعبة، و ذلك لأنّ العربي بطبعه يأبى الإعتراف بمواطن ضعفه و إن فعل فإنّه يعود ليصف قوته إضافة إلى ذلك فهو يؤمن بالمحسوسات فإن وصف الضّعف فإنّه يردّه إلى تحول سببه طول السّعي وراء الرّزق ، من ذلك قوله : [89]

رَأَتْ رَجُلاً قَدْ لَوَّحَتْهُ مَخَامِصُ .: وَ طَافَتْ بِرَنَّانِ المَعَدَّيْنِ ذِي شَحْمِ

و البيت سبق شرحه ، فالشاعر يحدث زوجته و يلومها على رغبتها في هجرة بعد أن أصبح شيخا ضعيفا لتبحث عن شاب قويّ البنية .

البيت به كنايتان : الأولى في الشطر الأول "لوّحته مخامص" أي غيّرته و أضمرته فأصبح نحيلا ضعيفا .

و الكناية الثانية في الشطر الثاني : "رنّان المعدّين ذي شحم" أي صلب الجانبين متشجهما و ذلك علامة القوّة.

-سرعة العدو :

و لها صلة وثيقة بالشّجاعة و الإقدام، فكثرة المشي و السّعي في أرجاء المعمورة من صفات الشّجعان وهو منهم فرغم كبره لا يزال يتمتع بسرعة خاطفة تخلّصه من أعدائه في كثير من الأحيان [90] :

أَفَاطِمُ إِنِّي أَسْبِقُ الحَتْفَ مُقْبِلاً .: وَ أَتْرُكُ قَرْنِي فِي المَزَاحِفِ ** يَسْتَدْمِي

---

[88] شعر الهذليين : ص368.

[89] ديوان الهذليين : 128/2.

[90] المصدر نفسه : 130/2.

** المزاحف : واحدها مزحف وهو موضع القتال، ينظر في المصدر نفسه: 130/2.

و الكناية في الجزء الأول من البيت "أسبق الحتف" يريد من خلالها وصف سرعته بدقة و إن كان حلول الموت لا يمنعه أحد، فهو إنّما أراد المبالغة فقط .

وفي القصيدة ذاتها يقول محدّثا عن إحدى رحلاته : [92]

إِذَا ابْتَلَّتْ الأَقْدَامُ وَ الْتَفَّ تَحْتَهَا ∴ غُثَاءُ كَأَجْوَازِ الْمُقَرَّنَةِ الدُّهْمِ

ابتلال الأقدام دلالة على كثرة المشي، لذلك فضل الشاعر التلميح إلى ذلك بقوله : "إذا ابتلت الأقدام.." بدل التّصريح وهو ما جعل الصورة أكثر تعبيرا و جمالا .

و يسترسل في وصف مغامراته لزوجته "أم الأديبر" فيقول : [93]

وَ عَادِيَةٍ ** تُلْقِي الثِّيَابَ وَزَعْتُهَا ** ∴ كَرِجْلِ الجَرَادِ يَنْتَحِي ** شَرَفَ الحَزْمِ **

-الطول :

وهو من صفات الجمال الّتي يعتزّ بها العربي عل نحو ما جاء في قول أبي خراش في وصف زهير بن العجوة : [94]

طَوِيلُ نِجَادِ البَزِّ ** لَيْسَ بِجَيْدَرٍ ** ∴ إِذَا اهْتَزَّ وَ اسْتَرْخَتْ عَلَيْهِ الحَمَائِلُ

البيت كلّه كناية عن طول الرجل، ولكن هذه الصّفة أظهر في الجزء الثاني "استرخت عليه الحمائل" ، فهو ينفي عنه القصر (ليس بجيدر) و يؤكد العكس مدلّلا على ذلك بتدلّي ما يحمله من سلاح.

---

[92] ديوان الهذليين : 130/2.

[93] المصدر نفسه : 132/2

** العادية : الحاملة

** وزعتها : كففتها .

** ينتحي : يقصد له .

** شرف الحزم: المكان الغليظ، ينظر في المصدر نفسه: 132/2.

[94] ديوان الهذليين : 149/2.

** البزّ : السّيف .

** الجيدر : القصير، ينظر في المصدر نفسه : 149/2.

و بالطريقة ذاتها يثني على قامة خالد ابن زهير بعد موته فيقول : [95]

فَلاَ وَ أَبِي لاَ تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِثْلَهُ ∴ طَوِيلُ النِّجَادِ غَيْرُ هَارٍ** وَ لاَ هَشْمِ

و البيت واضح لا يحتاج إلى شرح، فخالد طويل ، ممتلئ الجسم (غير هار و لا هشم..)

– **الذلّ** :

و هي من الصّفات الّتي يبغضها العربي، و يلصقها بالعار و عنها يقول أبو خراش : [96]

أُصِيبَتْ هُذَيْلُ بِابْنِ لَبْنَى وَ جُدِّعَتْ ∴ أُنُوفُهُمْ بِاللَّوْذَعِيِّ** الحَلاَحِلِ**

فهو يرثي أخاه عروة و يمثّل موته و بذل يلحق القبيلة و لكنه لايقولها صراحة بل يلمّح بقوله : "جُدِّعَتْ أُنُوفُهُمْ".

– **الكرم** :

هي إحدى أهمّ الصفات التي يعتزّ بها العرب، مما جاء في شعر أبي خراش عنها قوله يمدح "دبيّة" السّادن : [97]

كَابِيَ الرَّمَادِ عَظِيمِ القِدْرِ جَفْنَتُهُ ∴ عِنْدَ الشِّتَاءِ كَحَوْضِ المَنْهَلِ اللَّقِفِ

والبيت سبق شرحه غير أنّ الكناية تكمن في الشطر الأول عندما يعبّر عن كرم دبية بقوله : "كابي الرماد" أي كثير الرّماد، "عظيم القدر" تلميحا لكثرة ضيوفه.

– **طول اللّيل** :

و من ذلك ما جاء في قوله يصف قلقه أثناء اللّيل : [98]

وَ إِنِّي إِذَا مَا الصُّبْحُ آنَسْتُ ضَوْءَهُ ∴ يُعَاوِدُنِي قِطَعٌ عَلَيَّ ثَقِيلُ

---

[95] ديوان الهذليين : 155/2.

** هار : ضعيف

[96] ديوان الهذليين : 125/2.

** اللوذعي : الحديد اللسان .

** الحُلاحل : الرزين الركين، ينظر في المصدر نفسه : 125/2.

[97] ديوان الهذليين : 2/

[98] المصدر نفسه : 117/2.

في البيت كناية عن طول اللّيل تتمثّل في قوله : "يعاودني قِطْعٌ عليّ ثقيل"، فهو لم يذكر اللّيل، لكنّه ذكر ترقبه لضوء الصّبح ، ملمّحا إلى طول اللّيل باستعمال "قِطع" أي بقيّة من اللّيل .

- **الصّبر على الجوع :**

وفي موضع آخر يقول : [99]

أَرَدّ شُجَاعَ البَطْنِ قَدْ تَعْلَمِينَهُ ∴ وَ أُوثِرُ غَيْرِي مِنْ عِيَالِك بَالطّعم

وهو يريد الإشارة إلى الجوع، فيضرب لذلك مثلا عربيّا شهيرا [100]، يلمّح فيه إلى الجوع وكيف أنه يتسامى عنه.

***كناية الموصوف في شعر أبي خراش :**

و مثل هذه الكناية يطلب بها الموصوف نفسه، بحيث يختصّ به و لا تتعدّاه .

و من أمثلة ذلك في شعر أبي خراش عن السّيف باعتباره موصوفا : [101]

لَوْلاَ نَحْنُ أَرْهَفَهُ صُهَيْبُ ∴ حُسَامُ الحَدِّ مَذْرُوبًا خَشِيبًا

و في موضع آخر يقول واصفا إحدى مغامراته [102]:

لَمَّا رَأَيْتُ بَنِي نَفَاثَةَ أَقْبَلُوا ∴ يَشْلُونَ** كُلَّ مُقَلَّصٍ خَنَّابِ*

فهو هنا يشير إلى الفرس من خلال ذكر صفات تختصّ بها (مقلّص خنّاب)، ولو شاء لقال : يدعون أحصنتهم.

---

[99] ديوان الهذليين: 92/2.

[100] العرب تقول : الجوع يتلظّى في البطن كالشّجاع.

[101] ديوان الهذليين : 135/2.

[102] نفسه : 168/2.

** يشلون : يدعون .

* المقلّص الخنّاب : الطّويل القوائم ، ينظر في المصدر نفسه : 168/2.

الـــخاتـــمـــة

خاتمة

بعد رحلة طويلة من البحث ، حاولت خلالها الكشف عن سرّ البيان العجيب الّذي يطبع أشعار الهذليين، و بالوقوف على حياة القبيلة و بيئاتها و بعض ما قيل عنها خلصت إلى عدّة أمور أهمّها :

- إنّ نسب هذيل واضح لا غبار عليه، فهي من القبائل البدوية التي تمكنت رغم ظروفها و قسوة حياتها من حفظ نسبها و هذا ما أكّده الدكتور أحمد كمال زكي حين ذكر أصل هذيل حيث قال : "... فكلّ شيء ميسّر ممهّد، كأنّ المحققين من حفّاظ الأنساب قد بلغوا من الإحاطة بأمرها مبلغا لا سبيل إلى الشكّ في صحّته".

- يبدو أنّ قبيلة هذيل لم تكن تطمع في سيادة ولا جاه رغم أنّها لم تكن بعيدة عن أهمّ المدن التجارية مكّة، المدينة، والطّائف، و اكتفت بالمرابضة خلف حبالها.

- العزلة التي عاشتها هذيل قد تكون أحد العوامل التي ساهمت في الحفاظ على سلامة لغة القبيلة و صراحة نسبها.

- يمكن القول إنّ مجتمع هذيل ما هو إلاّ صورة مصغّرة للمجتمع العربي البدوي، غير أنّه ينفرد بقوة انتشار ظاهرة الصعلكة ، فقد تجد عشائر بأكملها تحترف الصعلكة وتسلك حياة ذؤبان العرب.

- قبيلة هذيل من القبائل التي أذت الرّسول صلّى الله عليه و سلم ، و إسلامها لم يكن إلاّ إذعانا للأمر الواقع مما جعلها تتعرض للنقد و السخط بدليل سكوت السراد الأعظم من الرواة عن ذكر أخبارها.

و من خلال عملية إحصاء و استقراء لبعض الشواهد شعرية لأحد فرسان القبيلة وشعرائهم خلصت إلى نتائج كثيرة أهمّها :

- إنّ غرابة اللّفظ في شعر الهذليّين نابعة أساسا من عزلة القبيلة الّتي كانت تراوض خلف الجبال .

- إنّ هذه الغرابة والخشونة لم تمنع علماء اللغة من اتخاذ أشعار الهذليين شواهد نحوية تبنى عليها القواعد، مما يدلّ على أنّها كانت توافق كلام سائر العرب.

- كلّ من ينظر إلى شعر الهذليين يلحظ سرعة فنية تتجلّى ملامحها في كثرة المقطوعات الشعرية في الدّيوان، ومثل هذه السرعة آثرها "الذّؤبان" من شعراء القبيلة دون أن يغفلوا ارتجال بعض الصور البيانية التي بثت في أشعارهم بشكل عفوي و على هذا الأساس لمسنا بعض الصور لا سيما التشبيه الذي غلب على شعر أبي خراش الهذلي -باعتباره محور البحث- فهو لا يستطيع التعبيردون تمثيل يستلهم صوره من واقعه و الطبيعة البدوية التي تحيط به.

- إضافة إلى ذلك إنّ أبا خراش استعان كثيرا ببعض الإستعارات المكنية دون الصّريحة منها و سبب ذلك ربّما يعود ميله إلى تشخيص بعض الأشياء و المعاني (الليل - الجوع).

- و الكناية أيضا لم تغب من شعره فقد كان في أحيان كثيرة يؤثر التلميح والإشارة إلى بعض الأمور باستعمال الكناية سواء عن الصّفات أو الموصوفات.

- و ما يشدّ الإنتباه فعلا هو استعانة أبي خراش بصور غريبة إن لم نقل متناقضة، من أجل ذلك انتشرت في شعره التشبيهات الغريبة التي تقترن فيها الحقيقة بالخيال .

وبعد هذا كله أتمنى أن أكون قد وفّقت في بلوغ بعض الأهداف المسطّرة لهذا البحث، و أن أكون عند حسن ظنّ أستاذيّ المشرفين بي، و الله من وراء القصد.

قائمة المصادر و المراجع

قائمة المصادر و المراجع

-القرآن الكريم برواية حفص.

1- أبو ذؤيب الهذلي حياته وشعره للدكتورة نورة الشملان، عمادة شؤون المكتبات ، الرياض ، ط1، د.ت.

2- أدباء العرب في الجاهلية و صدر الإسلام لبطرس البستاني دار المكشوف، بيروت، ط10، 1968م.

3- الأغاني أبي الفرج الأصفهاني ، دار الثقافة بيروت ، لبنان، ط1، د.ت، ج6: 6-20، 21-23.

4- الأمالي في لغة العرب لأبي علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط1 سنة 1398هـ، 1978م : ج:1-2.

5- الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين و الكوفيين للشيخ الإمام كمال الدين أبي البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد الأنباري النحوي دار الجيل، ط1، سنة1986م: ص1-2.

6- البحر المحيط لأثير الدين أبي عبد الله محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي الغرناطي الشهير بأبي حيان التوحيدي، مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر، ط1 عام 1328هـ، ج1-2... -5-6.

7- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب لسيد محمود شكري الألوسي شرح محمد بهجت الأثر، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط1، د.ت، ج2.

8- البيان و التبيين لأبي عثمان بن بحر الجاحظ، دار الفكر للجميع ط1، سنة 1968م: ج2.

9- تاج العروس من جواهر القاموس لمحمد مرتضى الزبيدي المطبعة الخيرية - مصر ط1، 1306هـ، ج1.

10- تاريخ بن خلدون المعروف بكتاب العبر و ديوان المبتدإ و الخبر في أيام العرب والعجم والبربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر للعلامة عبد الرحمن بن خلدون، دار الكتاب اللبناني ، ط1، عام 1981م، ج2.

11- تاريخ الرسل و الملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، مكتبة الخياط ، بيروت، ط1، د.ت، ج: 1-2-3.

12- التحولات الجديدة للسانيات التاريخية للدكتور مرتاض الجليل ، مطبعة دار هومة ، ط1، عام 2001م.

13- تهذيب سيرة بن هشام لعبد السلام هارون، دار الفكر ، دار الشورى، بيروت، لبنان، ط1، د.ت.

14- جمهرة أنساب العرب لابن محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار المعارف ، مصر ط1، سنة 1962م.

15- حضارة العرب لغوستاف لوبون ، نقله إلى العربية : عادل زعيتر ، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط3، عام 1956.

16- خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب لعبد القاهر بن عمر البغدادي، المطبعة السلفية ومكتبتها القاهرة 1348هـ، ط1، ح.

17- ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ، دار صادر بيروت، ط1، عام 1964، ج1.

18- ديوان الهذليين : دار الكتب المصرية، ط1، سنة 1950م، ج1-2-3.

19- الساميون و لغاتهم : تعريف القراءات اللغوية و الحضارية عند العرب للدكتور حسن ظاظا، الدار الشامية ، بيروت، دار القلم، دمشق.

20- شرح أشكار الهذليين لأبي سعيد الحسن بن الحسين السكري ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، مراجعة محمد محمود محمد شاكر، مكتبة دار العروبة القاهرة، ط. د.ت، ج1-2.

21- الشعر العربي في محيطه التاريخي القديم لنجيب محمد البهيتي ، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط1، د.ت.

22- الشعر و الشعراء لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، تقديم و مراجعة : حسن تميم و الشيخ محمد عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم بيروت، ط5، د.ت.

23- شعر الهذليين في العصرين الجاهلي و الإسلامي للدكتور أحمد كمال زكي ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 1969م.

24- العصبية القبلية و أثرها في الشعر الأموي للدكتور إحسان النص، دار البقظة العربية، بيروت، ط1، عام 1964م.

25- علم البيان لعبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربية ، بيروت، ط1، د.ت.

26- عيار الشعر لمحمد بن أحمد بن طباطبا العلوي (ت422هـ) تحقيق الدكتور : محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف .

27- فجر الإسلام لأحمد أمين ، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط1، د.ت.

28- فن القصة القصيرة بالمغرب في النشأة و التطور و الاتجاهات لأحمد المديني، دار العودة ، بيروت، ط1، د.ت.

29- الفهرست لمحمد بن إسحاق النديم : تحقيق مصطفى الشريمي، الدار التونسية للنشر ، ط1، د.ت.

30- القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث للدكتور عبد الصبور شاهين ، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، د.ت.

31- قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان للقلقشندي أبي العباس أحمد بن علي، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، ودار الكتاب اللبناني، ط1، د.ت.

32- القيم الروحية في الشعر العربي حتى منتصف القرن العشرين لثريا عبد الفتاح ملحس، دار الكتاب اللبناني، ط1، د.ت.

33- الكامل في التاريخ لابن الأثير دار الكتاب العربي ، بيروت، لبنان، ط2، 1967م، ج2.

34- الكامل في اللغة والأدب لأبي العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرّد النحوي (ت285هـ) ، تحقيق : تغاريد بيوض و نعيم زرزور، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، ط1، سنة 1405هـ، 1987م، ج2.

35- لسان العرب لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، دار صادر للطباعة و النشر، ط1، 1956م، ج2-3-4-7-9-20.

36- اللهجات العربية في التراث للدكتور أحمد علم الدين الجندي ، الدار العربية للكتاب، ليبيا و تونس، ط1، 1978م، ج1-2.

37- اللهجات العربية في القراءات لعبده الراجحي ، دار المعارف ، مصر، ط1، 1969م.

38- اللهجات العربية نشأة و تطورا للدكتور عبد الغفار حامد هلال، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، ج1.

39- متن اللغة للشيخ محمد رضا، دار مكتبة الحياة ، ط1، د.ت، ج1.

40- معجم الأدباء المعروف بإرشاد الأريب إلى معرفة الأديب لشهاب الدين ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي نسخ و تصحيح : د.أ.س مرجليوت : ط1، 1964م، ج1.

41- معجم ما استعجم من أسماء البلاد و المواضع لأبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي ، تحقيق : مصطفى السقا، المعهد الخليفي للأبحاث العربية، ط1، سنة 1945م، ج1.

42- مفتاح العلوم للإمام أبي يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي (ت626هـ) ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، د.ت.

43- المفضل في تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي، جامعة بغداد، ط2، د.ت.

44- المقدمة : للعلامة عبد الرحمن بن خلدون ، مكتبة المدرسة و دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ، بيروت، ط3، 1967م.

45- المزهر في علوم اللغة لجلال الدين السيوطي ، ج1.

46- الوسيط في الأدب العربي و تاريخه لأحمد الإسكندري و مصطفى بوعناني بك، دار المعارف ، ط1، د.ت.

مواقع الواب:

- W.W.W.GOOGLE .com

بحث بعنوان قبيلة هذيل، للأخ سعود محمد الحتريشي الهذلي.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

مقدمة أ

الفصل الأول : لمحة عن بيئة هذيل 01

تمهيد 02

أولا : هذيل نسبا و موقعا 06

1- نسب هذيل 06

2- منازلها 10

ثانيا : هذيل اجتماعا و ثقافة 17

1- هذيل في الجاهلية 17

2- مميزات مجتمع هذيل 19

3- حياة هذيل الدينية 23

4- نشاط هذيل الإقتصادي 26

5- ظاهرة الذؤبان في مجتمع هذيل 28

ثالثا : هذيل في صدر الإسلام 31

1- هذيل بعد البعثة 31

2- هذيل بعد انتشار الإسلام 33

الفصل الثاني : الفضاءات اللّغوية و الفنيّة في شعر الهذليين 35

أولا : خصوصية لهجة هذيل 36

1- تمهيد 36

2- لهجة هذيل بين اللغويين و النحويين 36

أ- المستوى الصوتي و الصرفي 37